

ابن القبطية

وليد علاء الدين

رواية

ابن القبطية

*

ابن القبطية
روايــة
الطـبعة الأولي : ٢٠١٦
رقـم الإيداع : ٩٣٩٥ / ٢٠١٦
الترقيم الدولي : ٧ - ٠١٦ - ٨٠٣-٩٧٧-٩٧٨
الغــــــلاف : حاتم سليمان

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ ـ دجلة ـ المعادي ـ القاهرة .
تليفــون : ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ ـ ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد إليكتروني : info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني : www.kotobkhan.com



ابن القبطية

رواية

وليد علاء الدين



فهرسه أثناء النشر

الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية

علاء الدين، وليد

ابن القبطية : رواية / تأليف : وليد علاء الدين. — القاهرة : الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٦

ص ١٨٤ ، ٢٠ سم

تدمك : ٧ - ٠١٦ - ٨٠٣ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ ـ القصص العربية

أ ـ العنوان

رقم الإيداع : ٩٣٩٥ — الطبعة الأولى ٢٠١٦

تقــريـــر طــبي

اسم المفحوص : يوسف حسين "البيانات الشخصية : مرفق بالتقرير" .

جهة الإحالة : مستشفى بي اتش واي للأمراض العصبية والنفسية .

سبب الإحالة : تقييم ملاءمة المفحوص للعلاج النفسي الداخلي، والصعوبات المحتمل مواجهتها معه .

بعـد التحيـــة،،،،

يعاني المفحوص من حالة متقدمة من الفصام Schizophrenia، تتجلى في حالته مجموعة الأعراض التقليدية للمرض، وفي مقدمتها التوهمات النوعية Delusions وأبرزها توهمات الاضطهادية والعظمة، بالإضافة إلى عدد من الهلوسات السمعية والبصرية Hallucinations، وبصفتي طبيبه المختص لم أتمكن من التفرقة بين الحقيقي منها والمتخيل إلا بالقدر الذي سمحت به شهادات بعض المقربين ومنهم والدته والفتاة التي كان

من المفترض أن يرتبط بها. ولم نمتلك أي دليل على صحة أو زيف شخصية المرأة التي يتحدث عنها.

ويدخل في إطار الأعراض التي تبينت لنا خلال الملاحظة كذلك تطاير الأفكار وسرعة الانتقال من فكرة إلى فكرة، وتكرار طقوس بعينها، والمراوغة في الكلام.

في البداية استجاب المريض بشكل جيد للعلاج بمضادات الذهان، أعقب ذلك محاولات إعادة تأهيل بمساعدة والدته وفتاة يحبها لتدريبه على التعامل مع الحياة الاجتماعية بشكل أفضل، كما تم الاستفادة من ارتباطه الشديد بالقراءة والكتابة، ونجحت محاولات استدراجه إلى استخدام الكتابة كوسيلة للتعبير عن توهماته وهلوسته السمعية والبصرية.

وقد نجحت فكرة الكتابة مصحوبة بالتأهيل الإجتماعي كبديل جيد للتخليج الكهربائي، بهدف تقليل فرط التنبيه المستمر الذي يتعرض له، بتفريغ محتوى الدماغ من النواقل العصبية، لذا لم نلجأ إلى الكهرباء سوى مرة وحيدة حين اختفت كراسته الزرقاء ورفض أن يكتب في غيرها، إلى أن نجحنا في إيهامه بعودة كراسته إليه.

ولكن مع الأسف، فقد تعرضت الحالة إلى انتكاسة مفاجئة، بعد فترة من الثبات، وهو في الفترة الحالية مصاب بالجامودية

catatonia في حالة مراقبة من مكانه قرب سريره، ربما نتعرف على بعض تفاصيلها من وصفه الذي يشبه المسرح للمشهد الأخير في غرفته.

نرفق طيه بيان الأدوية التي تناولها المريض والمدد الزمنية، ونتائج الاختبارات المقننة وغير المقننة التي تعرض لها.

كما نرفق ما نجحنا في حثه عليه من كتابات خلال فترة العلاج بالكتابة، وإن بدت غريبة في لغتها وأفكارها، آملين أن تجدوا فيها العون اللازم في علاج حالة الجامودية واستعادة علاقته بالمجتمع.

ولكـــم جــزيل الشكـــــر

د. نائل الزغادي

استشاري الطب النفسي

١ هواجس ليلة الدخلة

انتشرت الفكرة في ذهنه وقلبه كما تتشظى حبات لوح زجاج رقيق أُلقي به من علٍ على أرض صخرية.

كان يشعر بأصدائها في كل ناحية من نفسه؛ أصداء بارزة، ناتئة ليس له أن يتحداها، عليه فقط ـ إذا كان يملك القدرة على ذلك ـ أن يُفلت منها، أن يمرر قدميه الحافيتين بين مئات قطع الزجاج المستعدة لإسالة دمه في كل نقلة قدم.

أحسّ بدمه يصخب في عروقه كماء حنفية الشارع الذي تطل عليه شرفته، يهدر مثلما تهدر منذ أفسدها صبية الحي.

قفز برشاقة لم يعهدها في جسده من قبل، في ثوان كان قد غادر مقعده الخشبي ليقف لصق فتحة الشيش الموارَب على الشارع.

أطلّ بحدة من خلال الشباك، هدأ عندما رأى القطة الصغيرة تمرح في المياه، تبرد جسدها الضعيف من ثورة الحر التي أصابت المدينة هذه الأيام. تمنى لو يشاركها اللعب هناك، ويترك للحنفية أن تمتص من دمه تلك الحرارة التي تكاد تخنقه.

دفع ضلفتي الشيش بسرعة، فاصطفقت كل واحدة في جدار الحائط المثبتة إليه وارتدت، تراجع برأسه إلى الخلف في محاولة فاشلة لتفادي ضربتين.

ارتج رأسه بهواء الغرفة الذي جف من شدة الحرارة والصمت، ارتد بأنفه ليصطدم بإطار النافذة المغلق الذي تناثر زجاجه على أرض الغرفة المرسومة بالأبيض والأسود كمربعات الشطرنج شظايا مختلطةً بدم.

بهدوء، عاد إلى مقعده الذي كان قد تحرك عن مكانه مسافة ليست بالقصيرة، عندما غادره في وثبة قط انطلق صوب فريسة، لم يفلح في تصويب جلسته، أدرك نفسه قبيل السقوط؛ فقذف بنهاية مؤخرته إلى الحافة الصغيرة، أصدر المقعد صريراً وهو يستقبل صاحبه فاقدَ السيطرة، بدا له كالصوت الذي يصدره سرير جارته كل ليلة منذ أن تزوجت.

- لكنتُ قلت إن صوت الكرسي يشبه صوتَ أنيني، لولا أنني سمعت الصوت نفسه من غرفتكما ليلة العرس، وفي كل ليلة تلتها.

حضر عرسها وسط جماعات رجال التقى بهم للمرة الأولى في صوان الفرح.

بعد طول تمنع، شاركهم احتساء البيرة وجذب أنفاس الحشيش، تبادل معهم الدعابات القذرة حولها وحول البغل، عريسها.

مدفوعاً بالنشوة، صعد إلى الكوشة ليهنئها، قبّل البغل من وجنتيه وشدّ على كفيه بحرارة، احتضنه وقرّب فمه من أذنه، متجاوزاً نفوره من رائحة عرقه النفاذة، تمتم متمنياً له التوفيق.

بدت له ـ وقتها ـ مثل تلك الأسماك التي تعلق في سنارته عندما يذهب للصيد قتلاً لوقت لم يعد يملك أكثر منه منذ أن كسدت السياحة، وفقد مصدر رزقه الصغير في بازار الحاج رشيد.

بعينيها المرسومتين بالكحلة، ووجنتيها الملونتين بالأحمر، والعرق الذي أسال خليطَ الألوان على جبينها ورقبتها، كان فمها أقرَب إلى فم البلطية الكبيرة الحمراء الضاربة إلى الخضرة، قبل أن تقضم خيط سنارته لتسقط في الماء، وقد أوشك أن يلتقطها ليضعها في سلة الخوص الراقدة على مقربة منه، تطل من حوافها ورقات الخس الخضراء، تحفظ للسمك رطوبته إلى أن ينتهي من الصيد.

التفت ليهنئها، ردد عدداً من كلمات التحية خرجت من بين شفتيه وكأنه يتفلها. احتار من تلك النظرة الساكنة في عينيها، كانت نظرةً ميتة إلى حد مخيف، أو حية إلى حد مرعب.

شعر بكثافة دخان الجوزة الممزوج بالحشيش الرخيص في حلقه وحنكه، وعندما فتح فمه ليتخلص من تلك اللزوجة، ارتج بداخله ضحكٌ خشي أن ينفلت؛ فاستعجل النزول من على الكوشة ليتفل في

أقرب مكان صادفه، ويواري تفلته اللزجةَ الصفراء في التراب بطرف حذائه الأسود القديم.

ما إن لمحه رفاق الجوزة حتى ارتفع صياحهم، لقد منحهم اليوم روحاً جديدة. جذبه أقصرهم من حزامه وسحبه إليه ليجلس، وأعلن كالمنتصر:

- **منذ أكثر من خمس عشرة سنة ما ورد علينا زبون مثلك.**

ارتج الرفاق بالضحك، كان كل واحد منهم يعتبره ضيفه الخصوصي، ويرى أنه المسؤول عن مهمة تعبئة دماغ الوارد الجديد.

انشغلوا به عن العرس والعروس والعريس والكوشه، لم تفرغ يده من زجاجة بيرة، ولم يخل أنفه من نفثة حشيش. أعاد أقصرُهم جذبه وأفرغ فضوله القاتل في سؤال:

- **ما الذي تمتمت به في أذن البغل جعلك ترتجف من شدة الضحك هكذا؟**

وكأنما ضغط القصير على زناد الضحك عند يوسف، انفرط في قهقهة هستيرية، كان بالكاد يلتقط أنفاسه فيرمي بالكلمات رمياً، ولأنهم كانوا في ذروة اليقظة التي يصنعها الحشيش في أصحابه، فقد نجحوا في استيعاب كل كلمة تفوّه بها وسط سيل الضحكات الهادر، فزادتهم الكلمات ضحكاً، لم ينتظر يوسف ليواصل رمي كلماته:

- كانت أسنان البغل تلمع بصورة زائدة. فكرت - وأنا أشد علي يديه وأهمس له شد حيلك - أن أسأله بم طليت أسنانك! ولكنني خفت، فحشيشتكم الملعونة، وتلك البيرة أطلقتا عنان خيالاتي، وخشيت ألا أتمكن من السيطرة على ضحكي المكتوم.

تعالت الضحكات، ودارت معها الأنفاس، ولكن يوسف تشبث بسيجارته ولم يقبل تمريرها، فازداد الرفاق إمعاناً في الضحك، وحرصوا على عدم مضايقته، يعرفون بخبرتهم أن هذا الزبون هو نجم الجلسة، فإذا كانت الليلة هي دخلة منصور على عروسه، فهي كذلك ليلة دخلة النشوة على خيال يوسف البكر، ولا شك في أن خيال هذا الأفندي ابن الناس، لن يصمد أمام سطوة عريس الغفلة هذا وهو يدك حصونه ويستخرج من مكنوناته ما يهتز له الحجر طرباً، فلا بأس إذن من هز الجزع طمعاً في الرطب، قال قصيرهم المكير:

- لا بد وأن لك خيالاً فاجراً يا رجل، أضحكنا معك.

انطلقت عقدة لسان يوسف، ترنح قابضاً على زجاجة البيرة بيد، والسيجارة بيده الأخرى، وراح يضبط إيقاع كلماته على قدر انفعالات الوجوه التي تراقبه:

- تصورت البغل، وقد انفرط كرشه أمامه بعد أن فك رباط حزامه، رأيت أمل وقد تراجعت فزعاً أمام كتلة اللحم النافرة

التي كانت مستترة قبل دقائق في بدلة العرس الفاخرة، تخيلوا ملامح وجهها وقد كساها تساؤل ضخم عن الكيفية التي سوف يجتازان بها هذا العائق الكبير!

انهار الجميع في ضحك هستيري دفعت حدتَّه قصيرَهم إلى التلصص حوله خوفاً، ولما اطمأن إلى أن جلستهم في نهاية الصوان تمنحهم الأمان، قال مستملحاً رطب يوسف:

- **احمد ربك يا أفندي، لولا انشغال المعازيم في مراقبة كتل تلك الراقصة التي تتلوى على ضجيج العازفين، لما مرت ليلتُك على خير.**

نهر الجميعُ القصيرَ، مدفوعين بقلقهم من أن يثير كلامُه خوف الزبون فيفسد عليهم الجلسة، واستدرك أحدهم الموقف مانحاً يوسف المزيد من أسباب الضحك، وما كان بحاجتها:

- **لكن، كيف لهذا الخرتيت أن يقتنص تلك الغزالة؟**

تألم يوسف للوصف، لكنه شعر كأنّ من تألم شخصاً آخر، شخصًا يختبئ خلف جلده ويرتدي ثيابه نفسها، لكنه في تلك اللحظة بعيد بما يسمح له بأن يسبه ويركله ويركض، ففعل:

- **رأيت الخرتيت الضخم يهجم- نافد الصبر- بكامل ثقله، فتغيب الغزالة بين كتل اللحم. ..**

- **لكن كيف بربك تحتمل هذه العروس الرقيقة هذا البغل الكبير؟**

طعنه بها القصير أيضاً، لكنه كان قد فقد السيطرة تماماً، سواء على نفسه أم على المختبئ خلف جلده هناك. ارتمى على الأرض وراح يرفرف بساقيه في الهواء ناقلاً عدوى الضحك إلى الرجال الذين كادت أنفاسهم تتوقف، وعندما استعاد السيطرة على نفسه، خرجت كلماته من بين شفتيه كأنها فئران تنجو بنفسها من سفينة تغرق:

- **لا بد وأنها بين كل ثلاث هزات لحمية سوف تمد طرف أنفها من أي ثقب يتوفر لتستنشق الهواء.**

قفز القصير محاولاً السيطرة على ضحكات تقطعت بها أنفاسه كأنها فراش يتطاير، صرخ وقد بلغ به الطرب مبلغاً لم يحلم يوماً ببلوغه:

- **ولماذا ثلاث هزات، كن كريمًا يا رجل، اجعلها خمسه.**

تحامل يوسف على نفسه، شعر بأنه يبذل جهداً خارقاً فقط لكي يحدد من يكلمه، وما إن ظن أنه حدد شخصه، حتى بادله الصراخ بصراخ ارتجت له طبلتا أذنه شخصياً، وهو يركز عينيه على طرف سبابته التي راحت تشير في الهواء:

- **نظرية الثلاثة بواحد.**
- **وما تلك النظرية البديعة!**

لم يأبه من أي فم صدر السؤال، فقد كان يستجمع طاقته كلها ليشرح لهم نظرية صديقه العظيمة التي سكنت عقله منذ أن سمعها في بداية مراهقته:

- **حدثني إياد، صاحب الخبرة الطويلة في النساء بأن ثلاث طعنات سريعات متلاحقات تعقبها سكتة قصيرة، فطعنة راسخة، قادرة على إذابة أعتى النساء وأكثرهن ثباتاً .دُم دُم دُم، تك...**

امتلأت أذناه بإيقاع الطعنات، دُم دُم دُم، تك، هز جسده عدة مرات يميناً ويساراً مستعيداً الصوت الذي أصدره المقعد، لم يطاوعه العنيد، انطلقت منه نغمات كثيرة شاذة، لم توافق إحداها رغبةَ العازف.

اشتدت رغبته في استعادة ذلك الصوت، راح يدفع بخصره ونصف جسده الأسفل، إلى الأمام وإلى الخلف، راقصاً بمؤخرته في كل الزوايا علَّه يصادف الزاوية التي جادت به.

اندفعت الدماء في عروقه من الغيظ والكبت مثل جراء صغيرة فقدت أمها وانطلقت صوب رائحتها القادمة إليها من بعيد قبل أن تراها.

ازدادت حرارة الغرفة، وحلَّ صمت مريب، أرهفت الجدران والسرير والأشياء كلها السمعَ لهذا الدافق في عروق راقص المقعد.

في الثواني الأخيرة، وقد بدا أن روحَ الخشب قد استيقظت للنداء، انهار المقعد مصدراً الصوت الأخير في سجل تاريخه الحافل، وانتثر دافعهُ المستميتُ على بلاط الغرفة الشطرنجي، بيدقاً ضحت به الملكة.

٢ العود جميل يا يوسف

أشبَه بالبرص كان، وهو ممدد على أرضية غرفته بلا حراك، عينان تدوران في محجريهما، تمسحان الزوايا من وضعية جديدة لم يختبرها من قبل، فكّر لثوان أن تلك النبتة التي يسري رحيقُها في دمه الآن سوف تقتله.

- **الموت حلم طويل للروح، لا أمل في الاستيقاظ منه، تُعذبك خلاله خطاياك، وفي القلب منها، إساءتك لنفسك وللآخرين.**

اجتهد في دفع هذا الخاطر عن ذهنه؛ تعريف للموت ـ لا يذكر متى أو كيف صاغه ـ يلاحقه، يعرف أن روحه لن تحتمل عذاب إساءته إليها.

انشغل بمراقبة كائنات غرفته من أسفل، بدت له جديدةً ومغايرة، كائنات أخرى غير التي اعتاد أن يراها.

استوقفته خلفية عوده المعلق على الجدار، عريضةً، مكتنزة، مسحوبة إلى أعلى، تزينها ألوان الخشب الأصفر والبني في تدرجاته

وصولاً إلى الأسود، تذكّر سعادته الأولى حينما تمكن من دوزنة أوتاره بمفرده، مستعيناً بنغمة الصول من سماعة الهاتف.

قال له العم رضوان، معلم العود:

- **نغمة الصول هي صوت سماعة التليفون.**

استحضر صوتَ السماعة وراح يردد في اندماج:

- **صووووول، صووووول، صووووول**

قاطعه ذو اللحية، أخذ يوزع نظراته الغاضبة على يوسف وعلى عوده الذي يحتضنه إلى صدره برفق.

لم يُلق الرجل سلاماً أو تحية وهو يدخل إلى المصعد الصغير، فقط سلقه بعينين جاحظتين لهما حواف حمراء ملتهبة، قبل أن يوبخه بأدب لزج:

- **أما قال لك أحد إن المزيكا حرام!**

تشبثت يدا يوسف بعوده، ظل طوال سنوات دراسته الإعدادية يوفر مصروفه الأسبوعي من أجل الحصول عليه، خشي أن يتعدى الأمرُ مرحلة الكلام.

انتبه إلى أنه صار محط أنظار السيدتين والطفل، المنتقبة منهما برقت عيناها وجحظتا من بين ظلال قماش ثيابها الأسود، قبضة الطفل كورت جزءاً من دهون السيدة ذات الثياب الملونة، قبل أن يدفن وجهه في بطنها المترهل.

لم يترك ذو اللحية لبذرة الصمت فرصة لتنمو، أردف بنبرة أشد لزوجة:

- وخصوصاً العود والعياذ بالله.

جفّ حلقه، وشعر أن ساقيه ترتجفان، لم يجد أمامه سوى الالتصاق بجدار المصعد خشية السقوط، يعرف أنه غير نظيف، عليه طبقة لزجة من القاذورات، وما يشك في أنه مخاط، يتحاشاها في كل مرة في ذهابه أو إيابه من حصة الموسيقى، لكنه وجد في القذارة الملجأ الوحيد من ذي اللحية الذي لم يحول عينيه عنه.

بعد دقائق بدت له دهراً طويلاً توقف المصعد، تحرك للخروج، زاحمه ذو اللحية بجثته العريضة، كان يخشى على العود، ناورَ بحذر إلى أن أفلت من الباب قبل ثوان من انغلاقه، انكتم صوت الرجل وهو يلاحقه بكلمات، سمع منها:

- إذا كنت مسلمْ ...فاتق الله.

طفرت حبيبات عرق دقيقة على جبهته وارتعشت أطراف أصابعه المتشبثة بأجنحة الطيور وسعف النخيل المنقوش على أطراف الكليم الصوفي العتيق، الذي يغطي بالكاد عشر بلاطات تحته.

انعتقت الطيور من بين أصابعه واستردت سعفات النخيل استقامتها، سرى خدر رهيف في جسده الممدد على أرضية الغرفة في وضعية غير مريحة.

علقت كلماتُ الرجل في ذهنه كما يعلق خفاش في ظلام الزوايا، تُذكّره مرارتُها بطعم أول سيجارة بانجو دخنها في مخزن بازار الحاج رشيد.

عاوده الضحك. قال له رضا إن هذا الصنف أعطته له سائحة ألمانية، وهو قادر على أن يفلق الحجر نصفين، أشعل اللفافة وركز بصره على صور أبي الهول المرسومة باستخفاف على أوراق البردي المتراصة على الحائط، كان يريد أن يختبر تأثير المخدر عليه إن زاغت الصورة من أمام عينيه.

لم تزغ صورة أبي الهول، لكنه انتبه للمرة الأولى إلى أنهم يرسمونه بلحية وأنف سليمتين، ضحك كثيراً، حتى لم يعد يعرف إن كان ذلك بفعل البانجو أم بفعل اكتشافه المثير الذي تحول إلى سؤال لا يفارق شفتيه:

- **لماذا لا نعترف بأن أبا الهول مجدوع الأنف؟!**

ظل يضحك، مركزاً بصره على الصورة منتظراً أن تزوغ العينان.

تحول الضحك إلى هلع عندما حلت لحية رجل المصعد محلَ لحية أبي الهول، وراح يطالعه بغضب مخيف من بين مزيج الألوان الصارخة على ورق البردي.

فزع يوسف وصرخ طالباً النجدة من رضا الذي حضر مسرعاً.

بصعوبة، نجح رضا في كبح جماح ضحكه، وهو يقارن بين هلع يوسف ونظراته الفزعة وإصبعه المرتجفة المصوبة على أوراق البردي، وبين ما يهذي به من قصص عن الرجل ذي اللحية والمصعد والعود.

أخذه بين ذراعيه مطمئناً إياه إلى أن هدأت ارتجافته وانهمر في بكاء مكتوم.

- **أتدخل عقلك كلماتٌ مثل هذه يا يوسف؟**
- **لم تكن كلماته مُرَّة لأنها لمست عقلي يا رضا، ولكن لأنها عدوانية، محمولة على أكتاف غليظة ونظرة مستهينة. خفت، نعم كنت خائفاً.**
- **ولماذا لم ترد عليه ... ربما كنت هدأت قليلاً!؟**
- **هؤلاء الذين يقطر اليقين منهم لا يستمعون، فقط يتكلمون، هل كان يغير من الأمر شيئاً إن قلت له إن الله لا يخلق الأشياء الجميلة ليحرمنا منها! العود جميل يا رضا، العود جميل.**

ضمه رضا مرة أخرى، ربت على كتفيه وراح يردد معه:

- **العود جميل يا يوسف، العود جميل، ولا تزعل.**

لم يفلته إلا عندما تحول إيقاعه وهو يردد "العود جميل" من الحزن إلى الفرح، راحا يضحكان معًا على لحية أبي الهول وعلى أنفه المجدوع، وتلك المنتقبة التي أضاءت عيناها فرحاً بالصراع الوشيك.

خططا ساعتها لسهرة عظيمة يدعوان إليها زملاء العمل، تبدع فيها أنامل يوسف لحنًا على أوتار العود يهديه إلى رجل المصعد، أغنية يستهلها بـ العود جميل يا رضا، العود جميل.

نقل يوسف عينيه إلى عوده وتعجب كيف لم ينتبه من قبل إلى أنه يشبه امرأة من أسفل، تساءل إنَ كان السر في تسميته بهذا الاسم هو الشبه الذي يحمله بعود امرأة مكتنز!

اجتهد في رقدته لكي يحصي عدداً آخر من الأشياء يتسلى بإيجاد المشتركات بينها، لم يرد إلى ذهنه شيء واحد قادر على أن يثير بداخله شعوراً مغايراً يمسح مرارة كلمات رجل المصعد، ولا شيء واحد خطر على باله، فقط امتلأ عقلُه بصوت خرير مياه الحنفية المكسورة يأتيه من الشباك.

أفزعه ذلك الخواء الشاسع، انتفض واقفاً غير عابئ بطقطقات عالية أصدرتها مفاصلُه بعد أن يبستها السقطة، ولا بقطرات دم طفرت من قدميه الحافيتين وهو يدوس نثار الزجاج من حوله، منطلقاً صوب الشباك الذي كانت بعض أضلاعه مهشمة من أثر الصدمة، فتح المتبقي من الشيش، عبر برأسه المسافة بين مناخ الغرفة المسكون بالصمت وجو الشارع المكتظ بالحياة، وأطلّ.

رأى القطة مسترخية هناك، حفرت لنفسها بركة صغيرة في أرضية الشارع تحت الحنفية، بدت له سفينةً راسية في بحيرة طينية تغمرها المياه. غمرته الراحة لرؤيتها، إلا أن هذا الشعور لم ينعكس مع ظلّه الذي تسرب خلفه على جدار الغرفة المستقبلِ لضوء الشمس القادم من الشارع، طويلاً ومفلطحًا كبقعة حبر قديمة باَهتة.

٣ قنص الأصوات

صك سمعَه صوتُ الصرير المعدني الصدئ لباب دكان منصور الصايغ المقابل لمنزله. انسحب بسرعة إلى الداخل، استند إلى جدار الشباك تاركاً لظهره مهمة حمل جسده الذي أحسه جوالَ رمل رطب.

سرت سخونة الشمس المخزنة في الجدار، عبر مؤخرة رقبته إلى عموده الفقري وصولاً إلى نصفه الأسفل، تحرك إلى الوراء برغبة جارفة ملتمسًا الدفء.

ساعدت تسربات الضوء عبر الشيش بأطيافها المتلاعبة في تفريغه؛ لكي يبدو للناظر صورةً شخصية بالحجم الطبيعي لساكن الغرفة.

متثاقلاً، توجه نحو سريره، جلس على الحافة، سحب إليه الطاولة الصغيرة التي طالما صاحبت مقعده المكسور، زفّتْ الغرفةُ الطاولةَ إليه بصراخ الخشب على جفاف البلاطات.

من أسفل مخدته، سحب كراسته الزرقاء وقلمه الرصاص، وضع الكراسة على حرف الطاولة وفتح الصفحات، لم يعجبه سن القلم؛ من

بين وريقات الكراسة أخرج شفرة حلاقة صغيرة وراح يشذب السن الرصاصي حتى استراح لشكله.

رفع القلم إلى أن وازى وجهه، كرمش جبينه ودقق عينيه طويلا في ذلك الرأس المدبب:

- **أيها الرأس الأسود الصغير، من أين تأتي بالكلمات؟**

نقل نظره إلى الصفحة البيضاء المفتوحة أمامه، تذكر كلمات الطبيب الذي شكا له من أصوات تطارده أينما ذهب، نصحه بأن يكتب، قال:

- **إن الكتابة تقتنص الأصوات في كلمات، والكلمات تأسر الأفكار في أشكال، فلا تعود تطاردك.**
- **والحشيش؟**

سأله. فقال الطبيب:

- **لا بأس ولكن بمقدار**

وأردف:

- **عموماً، هو لا يتسبب في الإدمان.**

قبل أن يغادر، زاده الطبيب ذو العينين المرهقتين كلمات نطقها كمن يتلو من كتاب مقدس:

- **اكتب بالرصاص، فالمحو أيضاً كتابة.**

بهدوء، أسقط يده التي اكتشف أنها ظلت معلقة بالقلم على مستوى عينيه، راح يخط ما ظن أنه يُملى عليه، تعَجّب، أين كانت كل هذه التفاصيل مخزونةً! كأنما كانت في انتظار سن الرصاص المدبب لكي تنطلق:

"منذ أن تزوج بأمل، يفتح منصور الدكانَ بنفسه، يصحو من نومه براحته، بعد أن تكون الشمس قد أغرقت الكائنات ضوءا وحرارة، يعبر الممر الواصل بين شقته والدكان، يرتب أشياءه بالداخل، يرص "السيغة "في الفتارين، ثم يرفع الباب الصاج ليخرج بجسده القصير السمين وقميصه الحريري الملون، صارخًا بصوته الحاد المستفز على صبي المقهى الذي يركض محضراً الشاي والشيشة"

خيل إليه أنه سمع صوت منصور قادماً من الشباك:

- **تيبييفه ...الاصطباحة يابن الموبوءة.**

يضايقه الصوت، نفض رأسه، تلصص حوله بحذر، دقق النظر إلى سن القلم، وعندما وجده قد فقد حدّته، التقط الشفرة وراح يشذبه إلى أن بدا له قادراً على الذبح، ضغط السن على الورقة وكتب: *"منصور"* .

رمق الكلمة بغضب، ثم واصل الكتابة:

"سيظل منصور جالساً على باب دكانته، دمية نظيفة بعينين متراخيتين وكرش مشدود بحزام أنيق من الجلد، وذراعين أبيضين،

استرخى أحدهما على مسند المقعد المنجد بعد أن يحمله له صبي المقهى خارج المحل، قبل أن يضع له الشاي على طاولة صغيرة، يوازن بينها وبين الشيشة والصينية حاملة الأكواب بمهارة كبيرة."

تأمل كلماته على الصفحة التي لم تعد بيضاء، دقق في الأشكال التي تشبه خيوط النمل الدقيقة، رأى بينها وجوهاً وشجيرات، ابتسم للعينين اللتين ظن أنهما تطالعانه من بين تشكلات الحروف، دقق أكثر، استدعى خيالهُ السيدةَ التي كانت تمر صباح كل جمعة لتقرأ لوالدته الفنجان؛ فازدادت بسمته اتساعاً، أسقط يده على الكراسة وراح يكتب:

" في الواحدة، يختفي ظل منصور الضخم الذي يتحرك مع الوقت في شبه دائرة هو مركزها، يطول الظل ويقصر، يشتد ويبهت، وصاحب الكرش جالس في محله لا تتحرك يده، إلا لنقل الشاي أو مبسم الشيشة إلى فم يتمتم راداً تحية المارة حين يحيون، وبين حين وآخر يضطره زبون أو متفرج فيصحبه إلى داخل الدكان، قبل أن يعود إلى جلسته التي تنتهي بانتهاء النهار."

سربته الكلمات إلى عالمها، لم يكن يدرك أن التلصص من بين فرجات الشباك شحنه بكل تلك التفاصيل، راح يطالع بعينيه زخارف الحروف وقد عبأت نصف بياض الصفحة.

انتبه إلى الظل الذي تسرب خلال الوقت الذي استغرقته الكتابة، كان قد افترش الحائط المقابل للشباك، ظن في البداية أنه ظله، لاحظ بعد برهة أن تحركاته على الحائط حرة وليست تابعة له.

تحرّكَ فتحرّك الظل، بدا له أكثر رشاقة، على الأقل من فكرته عن نفسه.

انتبه إلى أن الظل لا يمسك قلماً بيده، أراد أن يختبر الأمر فوضع القلم على الطاولة وتحرك خطوة إلى الأمام ثم عاد مسرعًا، تحرك الظل الخطوة نفسها لكنه لم يتراجع؛ بل راح يستكمل خطوات رقصة بدت له مألوفة.

دهمه الرعب دفعة واحدة، زحزح جسمه بصعوبة معيدًا إلى الوراء الخطوة التي كان قد تقدمها فبات قربَ سريره الصغير الذي انعكس على ملاءته المتسخة ظِلُّ العودِ المعلق فوقه مباشرة.

أسقط جسمه المتعب، فانهار من عل محتضنًا ظل العود، بينما عيناه تتابعان الظل الذي انفرد بالحائط مستكملاً رقصته.

٤ أضغاث لجنة الاختبار

صامتاً، راقب يوسف ألعابَ الظل، انتهى من رقصته الصامتة وراح يعيد تخليق جيوش عتمته، ثمة فرشاة خفية تتلاعب بالعتمة والنور على الحائط المقابل، تستدعي من عوالم مجهولة كائنات يؤولها خيال يوسف القابع مرتعباً على سريره، حيوانات، وحوشًا خرافية، وأطفالاً، وشياطين وحدائق مشوهة، وعرائس، ونسوة متهيئات، ورجالاً بكروش متهدلة ككرش منصور الذي بدت ملامحه مختلفة عن مساء عرسه وهو جالس في الكوشة إلى جوار أمل.

من بين خليط الظلال قفز منصور أمامه، وقف يمرر أصابعه على نسيج كرافتته الحمراء، كما كان يفعل في الكوشة وهو يراقب في عيون الحضور ـ بعينين ساذجتين ـ تأثيرَ ثيابه الباهظة.

دقق يوسف النظر في الجسد الضخم، اختلط عليه الأمر، وشعر بدوار شديد، أغمض عينيه محاولاً السيطرة على ما تبقى له من وعي.

قفز أمامه رئيسُ لجنة الاختبار في مبنى التليفزيون، كان ـ كمنصور ـ دائم اللعب بكرافتته الفاخرة، لم يكن يهتم سوى بالفتاة التي توسطت الخمسة المرصوصين، مشكلين زاوية قائمة من جدارين، أمام طاولة يجلس عليها مع أربعة آخرين تتوسطهم امرأة مشكلين لجنة اختبار لمعدي ومقدمي البرامج.

من موقعه في نهاية الصف خلف باب الغرفة الضيقة، مسح يوسف بعينيه البطاقات التعريفية المكتوبة بخط مزخرف ساذج على الطاولة أمام كل منهم: أستاذ الصحافة، أستاذ الإذاعة والتليفزيون، كبير مذيعي القطاع، رئيسة قسم الإذاعة والتليفزيون، أستاذ الرأي العام.

بدا الرجل المجاور للمرأة أهمَّ أعضاء اللجنة، كان سعيداً فيما يبدو بالمرأة التي تجاوره وتزحمه بكتفها العاري، ترتدي زيًا مثيرًا وتضع "ميك أب" فاقعًا، لكن أين هي من شباب الفتاة التي تجلس أمامه وتزحم يوسف بساق عارية يكاد بياضُها يضيء في حلكة الميني جوب!

متأثراً بقربه من الكتف العاري، كان الرئيس دائم اللعب بكرافتته الفاخرة، يداعب طرفها تارة بأصابعه، وتارة أخرى يمسح على سطحها كمن يدلل حيوانه الصغير.

محتمياً بزجاج نظارتيه السميك كان يطيل التحديق في ساق البنت المكشوفة المجاورة ليوسف، يحدق فتتوتر أصابعه على الكرافته.

زحمت عضوة اللجنة الرئيسَ بكتفها فازداد توتره، قالت مخاطبة الجالسين أمامها، المجاورين ليوسف، السعيد ببذلته الكاملة التي أنفق في شرائها نصف مدخراته:

- **ملفاتكم كلكم أمامنا، فلا داعي لتضييع الوقت.**

نظرت إلى الرئيس المنشغل بالفتاة فهز رأسه بالموافقة، أضافت:

- **سيمر السؤال عليكم، إلى أن يلاقي إجابة مضبوطة، وعندما أشير إلى التالي، تكون الفرصة قد انتقلت مع إصبعي.**

مستمتعة بعبارتها اللافتة، نظرت إلى الرئيس الذي كان منشغلاً -ما زال- بساق الفتاة، فهز رأسه بالموافقة. أشارت عضوة اللجنة لأول الجالسين في الصف، ورشقت سؤالها بتلذذ من يقطع تفاحة بسكين:

- **قل لي، ما مقومات الخبر الخمسة؟**
- **تقصدين، حضرتك، الأسئلة الخمسة التي يجيب عنها الخبر؟**

لوت شفتها وإصبعها وكتفها في لحظة واحدة، فزاد ميلُها إلى رئيس اللجنة الذي توترت أصابعه على كرافتته الحمراء إلى حد الاعتصار.

نقلت إصبع القدر إلى الشاب التالي، متجاهلة ما أردف به الأول كغريق يتعلق بطرف إصبع أحمق.

- **أعرفهم يا أفندم ...أعطني فرصتي.**

ببرود بليغ، تجاهلت العضوة صرخة الغريق، وركزت إصبعها على التالي الذي حظي بنظرة فيها قدر من التشجيع، لمجرد إغاظة الأول الذي لاذ بصمت له رائحة حريق.

- **لو تقصدين، حضرتك، ما قاله الزميل، فالإجابة ما زالت عنده ...**

تحولت نظرة التشجيع إلي عاصفة من الاستياء برقت بها عيناها، فلم تنتبه إلى مغازلة الرئيس هذه المرة، ونقلت إصبعها المشحونة بالغضب إلى الشاب الثالث، الذي انتهز الفرصة وأجاب كمن يطلق بَولَه المحتبس:

- **لا بد للخبر من إجابة أسئلة محددة، من، ماذا، متى ... و....و...**

احتبس بوله، ولم يجد سوى حرف الواو يلوذ به، فردده عدة مرات بطريقة لم تستدع في عيني العضوة سوى السخرية التي سرعان ما انقلبت إلى بسمة واسعة وهي تنقل إصبعها تجاه صاحبة الساق المضيئة، ولم تنس أن تضغط كتفها العاري إلى كتف الرئيس المنشغل بأموره، قبل أن تهمس بسؤالها:

- **تعرفين بالطبع يا جيهان!**

غرّدت جيهان، بعد أن ردّت الابتسامة ببسمة رقيقة، وطوحت ساقها فكشفت لرئيس اللجنة مساحة أكثر ينشغل بها، ولفحت يوسف المنكمش إلى جوارها بحرارة لم يعرف من أين هبت:

- 4Ws and H...where, when, why, what...and how.

لم تكتف عضوة اللجنة بكتفها هذه المرة، مالت بمعظم صدرها على الرئيس الذي لم يعد موجوداً، وزغردت بصوتها :

- **هكذا تكون الإجابات، برافو، السؤال الثاني.**

أعادت العضوة السؤال، ومعه أعادت الدور من بداية الصف، كأنما يوسف ظلٌّ باهت لا ينتبه إليه أحد، تعطلت حواسه فلم يعد قادراً سوى على متابعة السؤال وهو يتنقل فوق طرف إصبع تنتهي بكتف عارية.

- **ما المصطلح "الإنجلش" المقابل للجامعة العربية؟**
- **أراب يونيفرستي!!!**

انتقلت الإصبع بامتعاض.

- **لم نستعد لامتحان إنجليزي!!**

انتقلت الإصبع باستهانة.

- **Arabic union.**

انتقلت الإصبع، بتكشيرة سرعان ما انفرجت عن ابتسامة إلى جيهان التي غردت :

- **Arab league.**

ارتاحت الإصبع واستقر الكتف على كتف رئيس اللجنة.

- **حتى الأكسنت مختلفة ... ميرسي يا جيهان.**

تيقن يوسف أنه مجرد ظل باهت لرجل يجلس على مقعد يرتدي بذلة كاملة أنفق نصف مدخراته لشرائها.

كان يسمع همهمات أعضاء اللجنة يتحاورون فيما بينهم، بعينين مفتوحتين محملقتين لا تريان سوى يد رئيس اللجنة المتوترة على كرافتته الفاقعة، قبل أن تتمدد رأسُه الصلعاء وتستحيل رأسَ جمل.

لوى الرجلُ الجملُ عنقه مداعباً كتفَ عضوة اللجنة، تحركَ نحو جيهان التي تضع ساقاً على الأخرى، دقق في بياضهما المكشوف فازدادت توترات يده على كرافتته الحمراء، انتبه إلى يوسف الجالس بقربها فرمقه من أعلى بعينين ككرتي نار.

جمل كبير شاهق البياض كأنه جبل جيري، يظهر فجأة ليقطع الطريق على يوسف، يُطل برأس ضخم يشبه قلة فخار، يرعبه سقوط الرأس هكذا من أعلى؛ فيركض على طريق ترابي ضيق وطويل ومتعرج لا تبين له نهاية، تحدّه ترعة ماء يعكس سطحُها خيالَ الجمل وهو يعدو في إثره مثيراً التراب والضجيج، بينما هو يركض رعبًا إلى أن ترتعش عضلات ساقيه ويتهاوى من فرط التعب.

يتوقف الجمل ويدور حوله في رقصة همجية، قبل أن يرمقه بعينين مشعتين، ويستدير عائدًا أدراجه وقد خلّفه طريحًا ذائبًا في العرق والخوف والتراب.

صرخ يوسف فزعاً، فتح عينيه على اتساعهما وراح يحملق في فراغ الغرفة التي كان ضوء النهار قد بدأ يغادرها.

كانت رائحة الجمل ولزوجة العرق ما زالتا عالقتين بأنفه، تعجب متى غفا ليطارده الحلم البشع نفسه الذي ظل يراوده كل ليلة منذ واقعة العرس!

٥ ذلك الحشيش الساحر!

كالمنوم، التقط يوسف القلم من فوق الطاولة، سحب الكراسة وتربع على سريره، مستفيداً من بقايا ضوء النهار المتسللة إلى غرفته من شباكه المكسور، وبيد مرتبكة من أثر الحلم وجّه رأس قلمه نحو الكراسة، وراح يكتب:

"كم تمنيت لو أنني أعرف الحشيشَ قبل هذ اليوم؛ هذا الكائن الجميل الذي يطلق عقارب لساني ويحرر شياطين فكري، لو كانت تلك العقارب طليقة والشياطين خارج قماقمها لانقلب السحر على الساحر، واستطعت أن أوقف لجنة التحكيم عند حدودها. لصرخت في وجه لاعب الكرافتة ذي المنظارين السميكين على أنف مفلطح، وطلبت من أستاذة الإعلام المثقلة بالميك أب أن تميل بكتفها قليلاً عنه ربما خف التوتر الذي كاد أن يصيب كرافتته بالاختناق، ولأمرت بقية أعضاء اللجنة بالذهاب تباعًا إلى الحمام، لإعادة تصفيف شعورهم التي اتخذت هيئة القرون."

"كم كنت خجولا ، أرى الناس بعينين طازجتين لم يلوثهما غبار الحقيقة."

"تقدمت بطلب، حددوا لي موعدًا للمثول أمام اللجنة، اشتريت بدلة كلفتني نصف مدخراتي، راجعت كل المعلومات التي توقعت أن يتم اختباري فيها، كنت أظن أنني أمتلك كل المقومات اللازمة؛ مظهري لائق، أمتلك نبرة صوت فخيمة، أجيد العربية وأكتب الشعر، كما أنني صحافي جيد رغم حداثة سني."

"قالوا لي، لا شيء يمر من دون واسطة، ففعلت؛ مررت قبلها بأيام على شقة الحاج سعد، العضو المعتق في مجلس الشعب، تركت نسخة من أوراقي هناك، وعد الحاجُّ أبي أن يتكلم في أمري مع كبير المذيعين في قطاع الأخبار، بصفته زميلاً تحت قبة البرلمان."

"دفعتني سذاجتي إلى تصور أنهم لم يسألوني في اللجنة لأجل خاطر الحاج، لم أكن أتصور أن الأمر كله مجرد لعبة، لعبة يتم خلالها التضحية بمئات الشباب والفتيات، لصالح ثلاثة من ذوي الحظوة."

"قابلت الكثيرين مثلي أمام المبنى، تركوا مشاغلهم واستدانوا من أجل الظهور بصورة مناسبة، ومن أجل المواصلات التي نقلتهم من الأقاليم والنجوع."

"قالوا لنا سوف نتصل بكم، تأكدوا أنكم تركتم أرقام هواتفكم، وعندما طال الوقت من دون رد، اتصلت بقطاع الأخبار فرد علي كبير المذيعين:

- صباح الخير أستاذ محمود.
- صباح الخير، اتفضل.

ذكرته بنفسي وبالحاج سعد، فرحب بي إلى أن ظننت أنه سوف يبشرني بالقبول، لكنه قال بصوت لم تفارقه نبرة الترحاب:

- ألم يخبرك الحاج سعد؟
- خير يا فندم!
- شرحت له إن الإعلان شكلي.. اضطررنا لعمله ...
- ما معنى شكلي؟
- لتثبيت جماعة يعملون بالعقد المؤقت من سنوات.
- والمواعيد والمقابلات والاختبارات والـ ... !
- ماذا نفعل لشروط الجهاز المركزي، تضطرنا لذلك.

جاء الصوت عميقًا ومحترفًا، إنه كبير المذيعين الذي ارتبط صوته منذ طفولتي بصباح الجمعة وعالم الحيوان، ترددت كثيرًا ماذا أقول، بحثت في ثنايا عقلي عن حيلة أبتز بها عطفَه فلم يَجُدْ ذلك العقلُ سوى بسؤال بدا وكأنه تسول:

طيب، حضرتك، ما إمكانية أن أعمل بعقد مؤقت؟

- للأسف، كما قلت للحاج ... فعلنا ذلك لأن نظام المؤقت انتهى.

طالما انشغلتُ وأنا طفل بتخيل صور للأصوات التي أسمعها عبر سماعة الهاتف، كانت المحاولات تقّودني دائماً إلى غرفة مظلمة بها شفتان تطيران."

ارتجفت يدا يوسف، سقط القلم على أرضية الغرفة، أزاح الطاولة قليلاً وانحنى ليلتقطه، هوى برأسه إلى الأرض، مستسلمًا طوى جسده ودس رأسه بين ركبتيه، بينما عيناه تراقبان الشفتين اللتين كانتا تحلقان على جدار الغرفة بين الظلال، كانتا تضحكان، فَهمَ أنهما تسخران من غبائه ومن سذاجته التي تحولت إلى لزوجة يشعر الآن بلسعتها في قفاه.

٦ منذر وجورج

سلخ أذنيه بوقُ سيارة مرقت في الشارع.

ارتبكتْ لوهلة لوحةُ الظلال الممتدةُ من خياله على الحائط، ركض الضوء سريعًا وانغرس في الزاوية، مرق منها إلى العدم، كاشفًا بحضوره الخاطف قسوةَ الظلام الذي احتلّ المكان بعده، مكللاً بغلالة صمت حملت إلى ذهنه راحة كاد يشعر بطعمها من شدة اشتياقه إليها.

تسرب إليه صوت الأذان، يبثه ميكروفون الجامع المثبت على مئذنته المنتصبة نهاية الحي، مئذنة نحيفة فارعة الطول، طالما راقبها بانبهار وهو صغير، وتساءل عن جدوى هذا الارتفاع الكبير والإعلان المبالغ فيه عن الوجود، الحي صغير، والجميع يعرفون الطريق إلى المسجد ولن يضيع أحد، لكنه أحبَّ هذا الكيان المفرط في العلو عندما بات بزوغه في الأفق علامة تطمئنه بالقرب من أمل عندما اضطرته الدراسة، ثم العمل، للبعد عنها بالأسابيع والشهور.

أخذته النشوة بالضوء الأخضر الذي يتسلل كل مساء من منارة المئذنة في هذا الوقت، يمهد لرحيل النهار، ويضفي على الأشياء مسحة

صوفية يحبها؛ تذكره بزيارته الوحيدة لضريح مولانا جلال الدين الرومي في قونية، ويستحضر معها متعته بصوت الناي الشجي الذي كان يملأ المكان ولا يشغله.

ارتخت أعصابه مستقبلاً صوتَ المؤذن الرخيم، سابحًا وسط هالة خضراء كست الأشياء، استسلم لعذوبة ونشوة سرتا في جسده ساعدتاه على القيام من سقطته، فأراح جسده علىً حافة السرير.

وسط العتمة الخضراء، قفز " منذر" من حائط الظلال، بوجه مستدير يشهق بياضُه في سواد لحية كثة، وشارب محفوف.

غيرَ مصدق، حدّق يوسف في الجسد العريض الفارع الذي يُكسبه الجلبابُ القصير ارتفاعًا ويضفي عليه مسحة من السذاجة والعفوية.

حضر الوجه متألقًا، مثلما كان دائمًا أيام الجامعة، لم تتمكن الظلال من طي ابتسامته التي تتجلى فيها أسنانٌ بيضاء من فعل السواك الذي لا يغادر أصابعه.

لم يصدق أنه حاضر بالفعل إلا عندما لمسته اليدُ الدافئة، ربتت على كتفه كعادتها مصحوبة بتمتمة ناعمة:

- أخي في الله.

انتفض يوسف من جلسته، بحث بيده مرتبكًا عن قلمه وكراسته إلى أن عثر عليهما، محاولاً تجاهل حضور منذر الفاجع.

- **إنه الحشيش، بلا شك، إنه الحشيش.**

ردد لنفسه، قبل أن يتمكن من السيطرة على القلم ويوجه رأسه إلى نهاية السطر الممتلئ بالكلمات، قاوم فضولَه في إعادة قراءة ما سبقَ وخطّته يداه، دفع بالرأس الرصاصي الدقيق إلى الصفحة وكتب:

"كم حيرتني ابتسامته تلك؛ بدت لي أحياناً دافئة كدفء حرارة يد صاحبها، وهو يصافحني ويضم كفي ويعانقني في رقة لم تبد لي قط مفتعلة، لتكتمل حلقة الدفء بندائه العذب: أخي في الله."

تحرك منذر صوبه، فأشاح يوسف بوجهه إلى الجهة الأخرى، اقترب بجرمه الضخم في جرأة وأعاد التربيت على كتفه مردداً جملته نفسها:

- **أخي في الله.**

نفر يوسف مبتعداً عن الظل، قاوم الرائحة المميزة التي كان يصفها له برائحة النظافة، مؤكداً أن المؤمن نظيف حتى لو أعدمه الفقر، كان دائماً ينتهز الفرصة ليضرب الأمثلة عن المؤمن الذي يحبه الله.

ترعبه الآن هذه الرائحة، منذ بات يشك في أنهما يتحدثان عن الإله نفسه، استجمع شجاعته فانطلقت كلماته تجاه الظل الذي أحس به يحاصره:

- الآن أعرف كيف أصف بسمتك؛ لقد كانت كقطع الطُعم التي أجتهدُ في الحفاظ عليها طازجةً حين أرتب- بتأن- صندوقَ أدوات الصيد، لأختار منها بعد ذلك المناسب، فأشكه في طرف السنارة قبل أن ألقيها في الماء، وأجلس، متذرعاً مثلك بالصبر، في انتظار سمكتي حتى تلبي نداء الجوع، إنها الخديعة.

تحرك منذر تجاهه، كتلة بيضاء مشعة في عتمة ينيرها شعاع أخضر تسرب من نافذة مكسورة، من دون أن يتخلى عن ابتسامته البشوش، خاطبه:

- إنها الدعوة يا أخي، وليست الخديعة.

أشاح يوسف بوجهه، تحرك منذر أمامه ثانية، فأغمض عينيه، دَعَكَ جفنيه بعنف، تمنى لو يتبخر هذا الظل الثقيل مع حبات العرق الكثيفة التي يشعر بها تنز من مسام جبهته الآن.

تخلى منذر عن ابتسامته، إلا قليلا، تغضنت قسمات وجهه ولاحت معالم الغضب في عينيه فبدت ابتسامته ـالتي يحرص عليها كنوع من الصدقةـ شرخاً أبيض في كتلة سوداء.

لوّح في وجه يوسف بقطعة السواك التي يحملها، تسربت الكلمات من بين أسنانه:

- **كيف ترضى أن تظل أمُك في غضب الله، وأن يكون مآلها إلى نار جهنم!**

مثل فأر محصور، راوغ يوسف، حاول التهرب، لكنه كان يفاجأ بحضور منذر في كل ركن يشيح بوجهه إليه، يحاصره بتمتماته التي يحفظها:

- **خذ بيدها إلى نور الهداية، اقرأ عليها من سورة مريم ما يُبكيها؛ لتعرف أن ما تقولَه لها، خرجَ وما أتى به عيسى من مشكاة واحدة.**

تراجع يوسف إلى أن حصره الجدار، نغزه منذر بطرف السواك في صدره، وصرّ صوتاً من بين أسنانه:

- **والله، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من أن يكون لك حُمُر النَّعَم.**

ركض يوسف باتجاه قلمه وكراسته اللذين تركهما على طاولته، نجح في التقاط القلم، تراجع منذر ناحية حائط الظلال، بينما ظل صوته متردداً في الغرفة:

- **فما ظنك والتي تسعى لهدايتها هي أمك، ما ظنك بالأجر الذي ينتظرك من الله إن نجحتَ في ذلك، يكفيك فخراً وعزاً يوم القيامة أجرُ الإخلاص وأجر الهداية، وأجر البر، فأي أجر تنتظر، وأي عز تطلب؟**

قاوم يوسف ارتباكه، جلس على حرف سريره، وتهيأ للكتابة مجتهدًا في تجاهل الصوت الذي كان يخفت رويدًا بينما تلاشى بياضُ صاحبه في ظلال الحائط :

- **أحبُّ أن أذكّرك أن الهداية ليست بيدك، فقط افعل ما تستطيع، حاول أن تكون سببًا، فأنت في النهاية لست الهادي، ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء.**

صمت الصوت بعد أن استحال همسًا. تنصّت يوسف جهة الجدار إلى أن تأكد له رحيل الصوت وظلِّه، شهق كمن أخرج رأسه من بركة ماء بعد طول انتظار، ركض بقلمه على صفحات الكراسة :

"بإبرة من نار، يحفر وجهُ منذر ذاكرتي، ويصعد من هاويتها بمشاهد كثيراً ما حاولت طيها، غلّفتها بمزيد من الحرص وألقيت بها في الركن القصي. ظننت أنها ذابت هناك، أو طالها ما يليق بها من عفن."

ارتجف جسده إلى أن بات غير قادر على الإمساك بالقلم، تشبث به، وانطلق كالملسوع من مكانه في الاتجاه الذي خرج منه منذر، وعندما تيقن له غيابه، صرخ كمن يشيع جثماناً :

- **لماذا أيقظتها يا منذر ...لماذا؟**

من حائط الظلال ارتدت إليه كلمته الأخيرة "لماذا" مبحوحة مشروخة.

فزع إلى كراسته وجلس، دقق في الحائط إلى أن اطمأن إلى عدم عودة الظل، أسقط يده على الكراسة وراح يكتب مقاومًا ارتعاشًا بدا معه كالمحموم:

"لماذا أيقظتها يا منذر ...لماذا؟ لتنتشر كالأشواك في شراييني؟ أشعر بها الآن تسرح كثعابين في جسدي؛ محاولاتهم اللزجة للتقرب مني، إطراؤهم المبالغ فيه لسلوكي وأخلاقي، حديثهم عن ضرورة استكمال هذه الأخلاق بالصلاة جماعة في مسجد الكلية، حرصهم الشديد على حضور جلسات الشعر حين أشارك فيها -رغم مقاطعتهم المعلنة لمثل هذه النشاطات، إطراؤهم لنصوصي - رغم ما يتضمنه هذا الإطراء من بعض اللوم والعتب لأنني حدت في بعضها- كما يرون - عن الفكر السليم الذي يدعو إلى مكارم الأخلاق، تنبيه الأصدقاء لي من الوقوع في أحبولتهم، خجلي الإنساني الذي طالما منعني من صدّ الآخرين وإن لم يرق لي أحدهم، تجاوزهم التدريجي لخصوصيتي وتطرقهم بالتساؤل إلى تفاصيل لم أتحدث عنها إلا نادرًا وضمن دائرة المقربين.

لم أكن أدرك قبل أن يحدثني منذر بتلك الفجاجة المكشوفة- أن رفيق عمري جعلني بضاعة يبادلها مع الله، هكذا قال لي، مبرراً بوحَه بسِرّي الذي قلب حياتي في الجامعة إلى جحيم!

صرت مستهدفًا؛ فمنذر وأتباعه من ناحية يجتهدون في تجنيدي لأكون رسولهم إلى أخوالي من النصارى - كما يسمونهم . ..

يهدي بي الله منهم من يشاء، ومن ناحية أخرى صرت محط أنظار الكنيسة، التي توعدتني، ثم وعدتني بخدمات جليلة سوف تقدمها لي إذا أنا كشفت لهم عن حملات الأسلمة، التي يقوم بها منذر وأتباعه.

هنا ظهر جورج كامل في حياتي، كان على العكس من منذر، لا يواجه، يتحرك دائماً بحرص يُشبه حذر التلصص."

- **جئت لأحذرك يا يوسف.**

ارتعدت أوصاله لسماع الصوت، انتفض واقفاً، سقط القلم من بين أصابعه حين التفت تجاه المصدر، كان جورج واقفاً خلفه ببنيته الرقيقة وعينيه الواسعتين اللتين تستحضران إلى مخيلته وجوهَ الفيوم التي طالما عشق ما يحسه فيها من براءة.

استجمع يوسف شجاعته وأطلق السؤال الذي طالما منعه الخجل من طرحه عليه:

- **لماذا تتلصص هكذا دائماً؟**
- **لأن المجتمع الذي يُسمي ما يفعله منذر ورفاقه دعوة وعملاً خيرياً، يسمي ما نقوم به تنصيراً.**
- **لا دخل لي بهذه أو تلك.**
- **موقف لا يجوز في هذ اللعبة.**
- **أية لعبة؟**

- لعبة الوجود.
- وجود من!
- وجودنا .... أو وجودهم.
- ألا يمكن أن يوجد كل منكما في الوقت نفسه.
- وجود كل منا منتقص بوجود الآخر.
- أنا وجود مشترك.
- لن نقبل هذا الموقف.

صمت جورج، كأنما ينتظر قراءة ردة الفعل على جملته الأخيرة التي نطقها بحدة لا تتناسب مع حجمه الضئيل، التفّ حول يوسف في هدوء من دون أن يتخلى عن مراقبة عينيه، ثم أردف:

- وهم أيضاً لن يقبلوا به ...

واصل التفافه حول يوسف الغارق في دهشته، واصل حديثه الهامس اللحوح:

- فكّر ...هم يعدونك بثواب الآخرة، نحن نضيف إليه المستقبل الذي تريده .....

كان جورج مع كل لفة يضيق المسافة التي تفصله عن يوسف، إلى أن أوشك على الالتصاق به، فتوقف، ثم دقق في عينيه، وخاطبه بإصبع كانت ترتجف وهي تشير تجاه حائط الظلال:

- شريطة ألا تنصاع إلى هؤلاء.

ارتبك يوسف من اقتراب جورج الشديد منه حتى كاد يشم رائحة أنفاسه، انحنى لأسفل في حركة مراوغة وهرب بجسده بعيداً، راح يردد لنفسه ضاحكاً ومستدعياً اللامبالاة:

- **إنه الحشيش، بلا شك، إنه الحشيش.**

خلال سعيه نحو الطاولة متلهفاً لقلمه وكراسته، اصطدم يوسف بمنذر الذي فاجأه وقوفه متلصصاً في الناحية الأخرى، ينصت إلى حوارهما.

لم يكن يوسف قد أفاق من صدمته حين جاءه صوت جورج مستكملاً حديثه وهو يتراجع خطوات إلى الخلف لظهور منذر في المشهد:

- **والمستقبل يا يوسف -لا شك -سوف يكون أروع، إذا قررت أن تنضم إلى صفوفنا، لتكون عوناً لنا على حركات الأسلمة التي يمارسها هؤلاء على الجميع، وعلى بناتنا على وجه الخصوص.**

وجد يوسف نفسه محاصراً بين الظلين، هَمّ بالركض، شعر بأنه غير قادر على الحركة، قدماه مسمرتان في أرض ملأتها شظايا الزجاج، اجتهد ليحرك ساقيه، فرَّ قلبُه خارج صدره حين انتبه إلى أنه مربوط من ساقيه بحبلين، طرفُ أحدهما في يد منذر والآخر في يد جورج.

اجتهد يوسف لكي يتخلص من هذا الأسر المرعب، كان يدرك بطريقة ما أنه واقع تحت تأثير الحشيش، ولكنه لا يعرف كيف يمكنه أن

يخرج من هذا العالم، اجتهد في التملص، فاجتهد كل منهما في سحبه إلى ناحيته.

راح يسحب نفسه في عنت تجاه قلمه وكراسته، التقط القلم وجذب الكراسة فسقطت من على الطاولة، هوى بجسده إلى الأرض، أشرع قلمَه محاولاً تسليطه على الصفحات التي انفتحت أمامه، لم يسمح له الجذبُ بذلك، استجمع كل قوته وجذب نفسه إلى الأمام، ألم عظيم يعتصره، انطلقت من جوفه صرخة عظيمة ارتجت لها أركان الغرفة، وارتبكت جيوش الظلال وتبعثرت على الحائط.

ارتخى الحبلان اللذان يقيدان ساقيه، أدركت يده كراسته.

متجاهلاً العرق واللزوجة والألم ونشيجه المكتوم، راح يكتب:

"لم يكن الله أبدًا محل خلاف بين أبي وأمي، كانت آية الكرسي معلقة قرب أيقونة المسيح المصلوب في غرفتهما، حدثتني أمي عن قصة الصليب المعلق فوق سريرها، أخبرتني أن والدي اشتراه لها وعلّقه بنفسه - بجوار آية الكرسي - ليلة زواجهما، والدي الذي أخبرتني كم أحبته وحاربت الدنيا من أجل أن تكون له، رغم اختلاف ديانتيهما.

حاربتْ الدنيا من أجله، وحاربَ من أجلها ناسه، أما أنا فقد ضاعت مني أمل لأنهما نجحا في حربهما وتزوجا وعلقا على جدار غرفتهما آية الكرسي ملاصقة للصليب!"

شعر بساقيه تنجذبان، اشتد جذب الحبلين فاضطراه للوقوف، صار كل حبل يجذب إلى ناحية، بيده اليمنى تشبث بالقلم، وأحنى جسده فالتقط كراسته، أغمض عينيه متهيأ للجذب والألم، استجمع كل قوته وفرد ذراعيه بقلمه وكراسته فبدا كالمصلوب.

من أعماقه الغاضبة أطلق صرخة امتزجت بألم الجذب، خرجت حروفه منغمسة بلهيب النار التي يشعر بها تحرق كبده:

- **هل يستحق منصور أمل لمجرد أنه ليس ابن القبطية؟!**

جفل يوسف، وانتبهت شعيرات جسده عندما مسحتْ كفٌ جبينَه، لا يمسه هكذا إلا أمه، فتح عينيه بين الخوف والأمل، فوجدها أمامه كما كانت دائماً، هادئة، تُوازن عيناها بين الحزن والفرح، همس فيها عاتباً:

- **لماذا هو بالذات؟**
- **لم يكن اختياراً يا يوسف، كان أكبر من ذلك.**
- **ألم تشعري بأنه مختلف؟**
- **إذا كان ثمة اختلاف، فالناس هم المختلفون.**
- **وكيف ارتضاه أهلك؟**
- **كان أبي يحبه؛ فقد تربّى في حجره.**
- **وهل يكفي ذلك؟**
- **في عُرف أبي.**
- **ليتنا نعيش بعرف أبيكِ.**

احتضنته الأم من ظهره، وراحت تهدهد بكفيها على صدره، بدا له أنها تضيف ثقلها إليه وتحاول أن تثبته في وقفته المعلقة بين حبلين، همست في ظهره فأحس كلماتها تخرج من بين ضلوعه :

- **عرفَ أني أحبه، فبارك زواجنا.**
- **بتلك البساطة؟!**

شعر بالفراغ عندما غادرتْ أمُّه ظهرَه، رآها تقفز بخفة رغم سنين عمرها، تحاول أن توازن قوة الحبل الذي تراه قد زاد في جذبه ليوسف، كانت تتنقل بين الحبلين بسرعة خشي معها على بنيانها الضئيل الذي هدمته السنون. كانت تلف أحد الحبلين حول جسدها وتراقب الآخر بحذر، فإن رأت يوسف قد مال إليه تركض كفرس فتلف الحبل على جسدها الضئيل فيستقر الشد.

لشدة إعيائه، كفَّ يوسف عن الحركة، تعجب أنه لم يسقط حتى الآن، إلا أن الأم التي كانت تتحرك كالمكوك كانت سر هذا التوازن، استرخى يوسف وراح يتابعها وهي تزن الحياة بذراعين مستميتين، وتستكمل له تفاصيل الحكاية :

"أخذ أبي كفي بين كفيه الكبيرتين وحدّق في عيني، ولما غلبني البكاء ضمني إلى صدره وقال "هو لكِ وأنتِ له" ولم يجرؤ أحد أن يرد هذه الكلمة.

ظلت جدتك شهوراً لا تعرف غير البكاء، وظل جدك صامداً على رأيه في غير جفاء. . .

كان - كلما عاتبته الأم - أخبرها أن الرجل بأخلاقه، وأن ابنته سوف تحظى برجل له أخلاق الفرسان، وحين ترفض يذكّرها بالعشرة الطويلة التي جمعت بين الأسرتين، كيف كانت- حينما تغضب منه- لا تجد لها من ملجأ سوى أم هذا الولد - الذي ترفضه الآن!

يذكّرها: هذا الولد الذي كان يلوذ بحضنك من غضبة أبيه، أبوه الذي لم يكن يرد قسمك حينما تستحلفينه بالمسيح الحي أن يرحم ابنه من العقاب.

ذات غضبة، هدر جدك في وجه أمي وهو يكظم غيظه مذكراً إياها بما حدث حينما استعصت عليهما حالة يعقوب- ابنهما البكري، أخي، خالك، بعد أن عجز الأطباء عن شفائه، كيف طلبت بنفسها من أم حسين، الذي ترفضه الآن، أن تصحب يعقوب إلى المسجد الكبير عند صلاة الجمعة. . .

وكيف أخذته المرأة فحممته وألبسته جلبابًا نظيفًا، وحملته على ظهرها ووضعته خارج المسجد، وملأت حجره بالتمر والكشك، وجلست تراقبه عن بعد إلى أن خرج الناس من صلاتهم وتجمعوا حوله يلتقطون من حجره التمر والكشك، عارفين أنه طالبٌ

للشفاء، وكيف أنها ركضت عليه وضمته في حضنها عندما أرعبه تجمعُ الرجال عليه وراح يصرخ وينادي بصوت واهن كمواء قط: "خالتي أم حسين، خالتي أم حسين" ليكون اسمُها أول ما يجري على لسان الصبي، ركضت الخالة أم حسين فخبأت يعقوب بين ملابسها وعادت به متهللة، فقد نطق بعد طول صمت أعياهم وأعيا الطب والحكماء.

قال جدك لأمي: أليست هذه أم حسين التي ظللتِ بعد ذلك ترددين "شي لله يا أم حسين" كلما أهلت عليكِ! وَهي ترد عليكِ: بركات العدرا أم النور ... فتضحكان؟

توجهت الأم نحو يوسف راحت تجذب الحبلين وتردد مرة:

- شي لله يا أم حسين.

ومرة:

- بركاتك يا عدرا يام النور.

راح يوسف يجذب جسده مقاومًا الحبلين، بذل كل ما في طاقته إلى أن أعيته المحاولة فانهار على أرض الغرفة. تحولت نداءاتُ الأم إلى صرخة واحدة:

- شي لله.

شقت الصرخةُ الملتاعة فراغَ الفضاء واخترقت طبلتي أذنيه، أفاق يوسف من غفوته التي طالت.

كانت أصداء الصرخة تتردد ـ ما زالت ـ في أركان الغرفة، بينما الظلال على الجدران تُعلن انتصارها وتطارد آخر فلول الضوء لتسقطها في سلال العتمة.

٧ باب الغواية

- بعدي بتول. . .

كانت تلك عبارتها الأولى لي.

وما دمتُ قد نجحت في الوصول إلى هذه المرحلة التي وعدني بها الطبيب، وتجاوزت بنجاح تلك الخيالات التي كانت تُحوّل تدريباتي على الكتابة إلى جحيم، ولأقلها بصراحة؛ ما دمت الآن أكتب، فقد كانت هاتان الكلمتان - بتعبيرات الروائيين أو كتّاب المسرح- هما جملتها التأسيسية، افتتاحيتها التي استهلت التراجيديا كلها.

ظننت للوهلة الأولى أنني لم أحسن التقاط الكلمات، فإضافة إلى دهشتي بجمالها، كانت اللهجة غريبة، كما أنني احتجت إلى قليل من الخيال لأنتقل من ملمس كلمة "بتول" التي لم أعرفها سوى متجسدة بحبر على ورق، إلى وقعها ككلمة من لحم ودم، وللحقيقة ليس كأي لحم ودم!

صحيح أنني لم أكن بعدُ قد تمعنت في تفاصيل الجسد الذي نقلني من جنة، كنت أظن أن نارًا لا تمسها، إلى أخرى، نارُها برد وسلام، إلا أنني في تلك اللحظة لم أكن قد تجاوزت مرحلة العينين، تينك الرائعتين اللتين تجمعان ـبعفوية ورقةـ نداءَ الشياطين ووداعة الملائكة، وتمزجان بين صخب أضواء المدينة واستكانة أقمار القرى.

بكل ما يجب أن يمتلكه رجل الخدمات الفندقية من أدب، سألتُها أن تكرر ما قالت، ففعلتْ، وأضافت كلمات اضطررتُ معها إلى مغادرة جنة العينين إلى نيران الجسد، فكان ما كان.

– **بعدي بتول...، إن كان يهمك!**

فتحتْ العبارةُ عيني اللتين كنت أظنهما مغلقتين إلا عن "أمل"، فرأيت.

حيال هذا الحضور، شعرت بأن كل مفردات اللغة التي يصف بها الروائيون النساء، قاصرة عن استيعاب تلك الدفقة التي رمحت في شراييني.

في جزء من الثانية، اختبرتْ مخيلتي كلَّ المفردات التي أعرفها، لم تحقق واحدة منها حالة الرضا، أو تقترب ـ حتى بنسبة معقولة ـ من الحقيقة الكائنة أمامي، ترسل إلى العقل إشاراتها لكي يقوم بالترجمة: بهيج، مدهش، مذهل، بديع، مثير، فاتن، فارع، بض، غض، مُزّه، حتّه، وتكه.

كانت كل كلمة منها لا تحتاج سوى أن تظهر لتخبو في لمحة، عندما تصطدم بهذا الجسد العصي على الوصف، تنزلق على حدوده غير مأسوف عليها، بكل ما تحمله من معانٍ سافرتْ إلينا عبر تاريخ اللغة المعقد.

كلمة واحدة فحسب، نجحت في التشبث لوهلة، فحصلتْ على حق التفكير في مدى صلاحيتها للاستعمال: رائع.

بدت لي ـ في البداية تقليديةـ لا تليق بهذا الحضور، لكن المحاولة قادت العقل، عبر مخزون اللغة، إلى سرّ المصطلح، فبات لائقاً بالارتباط بهذا التجلي الأنثوي الفريد، وإن احتاج إلى مزيد من الشرح:

الروع في اللغة هو "القلب"، وهو في الوقت نفسه "الذهن"، و"العقل"، لكنه كذلك "الحرب"، وهو "الخوف"!

فالرائع إذن، كما رتبه عقلي لحظتها، كل كيان تجاوز حدود العقل والذهن، وتعدى مقدرة القلب، كل حضور تنجح طاقتُه في اختراق مدى الرؤية والشوف، لتروّع من يرى، وتبث في قلبه الخوف، لكنه خوف ـ كما لا نعرفه، إنه ذلك الخوف الذي لا يدعو إلى الفرار، بل يحث على الكرّ، في حرب لا هوادة فيها.

بهذا المعنى، كانت رائعة، طاقة ما توزعت في تفاصيلها، تجاوزت حدود المألوف ونبهت بداخلي غرائز ما كنت أدرك وجودها في كياني، الذي ظننت أنني أعرفه منذ أكثر من ثلاثين عامًا!

كنت ـ للمرة الأولى ـ أقوم بخدمة الغرف في الفندق، لم تمض أسابيع على حصولي على الوظيفة التي توسّط لي فيها منصور، حتى طلبني مدير الفندق، وفي مكتبه المطل على الشاطئ وحوض السباحة المكتظين بالنساء، راح يغمزني بعينيه وكفه، وهو يوصيني بأن أنتبه إلى الضيفة التي سوف يخبرني برقم غرفتها حين أثبت له التزامي.

أكد لي، وعيناه لا تغادران جسداً من أجساد المتشمسات خارج النافذة، أن هذه المرة إنما هي اختبار لمهاراتي، إذا اجتزته فسوف ينقلني من خدمة صف السيارات، بلا رجعة، إلى خدمة الغرف.

قال، وقد تعلقت عيناه بردفين ارتجفا قبيل سقوط صاحبتهما التي قررت فجأة القفز في الماء:

- **تعرف بلا شك أن الفارق بينهما كبير، ليس فقط في الدخل، ولكن في المستقبل أيضًا**

ناولني ورقة، أخبرني أنني سوف أتسلم بها "يونيفورم" جديد، ثم رمقني من أسفل إلى أعلى في نظرة لم أفهم معها إن كان يتأكد من القياس، أم من شيء آخر في عقله، ثم أردف وهو يغمز بعينه مرة أخيرة:

- **ومن يعلم، ربما نراك في طواقم الإدارة العليا، ذات يوم!**

ثم أردف بجدية بالغة:

- **هكذا يرتقي العاملون في السياحة، فقط، انتبه لهذه الضيفة، فهي مهمة، وقد طلبتك بالاسم.**

طغت سعادتي بالترقي من صهد الشارع وضجيج السيارات، إلى برودة وظل الغرف على كل شيء.

شكرت المدير الذي كانت ملامح وجهه ـ عندما أتذكرها الآن ـ كفيلة بإثارة الشك في نفس أقل مبتدئ في عالم الفنادق، ولكنني كنت ـ بلا مبالغة ـ أقل بكثير من أي مبتدئ.

لم أر في الأمر ما يزعج، فلا شك في أن توصية منصور ـ التي لم أكن قد فهمتها حتى تلك اللحظة ـ لها دخل في الأمر، ليس هناك ما يريب، مجرد نزيلة في الفندق طلبتني لكي أقوم بخدمتها.

ابتسمت في نفسي وقلت:

- **امرأة مثل كل النساء، أم - لأنني يوسف- فلابد وأن تكون كل امرأة زليخة!**

في الغرفة لم أجد امرأة، بل إلهة من آلهة الأولمب، كما جسدَتها القراءةُ في خيالي، وكم هو انتقائي ودقيق خيال القارئ.

كانت أقصى مما تخيلت وأقسى مما رسمت، كانت بالفعل امرأة العزيز، غير أنها فاقتها في عدة أشياء، أولاً؛ هي بلا شك أجمل. ثانياً؛ لسنا في قصر، بل في غرفة فندق، بعيداً عن وشايات خدم العزيز الذي

نجح في إدارة مصر كلها، وفشل في إدارة بيته. وأخيراً؛ زليختي أصلاً بلا عزيز.

إلى حد اللحظة التي طلبتُ منها إعادة العبارات التي نطقتْها بعربية متكسرة، كعزيمتي وقتها، وبلكنة لم تفلح في إخفائها، كنت أعتقد بأنني عصي على أية امرأة، أيًا كانت سطوتها.

دعنا من تخريجة أن "راحيل" -كما عرفت اسمها لاحقًا- ليست امرأة؛ فهي واحدة من ألاعيب العقل الباطن، لكي يخلصني من مشاعر الذنب والخطيئة، راح يغويني بأنها ليست امرأة ككل النساء، فهي - كما قال وكما ادعيت التصديق- " مخلوقة من أصل الخلاصة التي تُخلط بالحمأ المسنون في خط إنتاج حواء، من الخلاصة ذاتها، خالصة من دون شوائب".

ولأنني كنت مستمتعًا بذلك الدفق الراكض من نخاعي إلى شراييني، فقد جاريتُه وهو يصب في أذني كلماته:

- **أنَّى لك - وأنت البكر- أن تتصدى لطاقة مخلوقة كهذه!**

لم يكن يخطر ببالي أن على هذه الأرض من يمكنها أن تثير الرغبة بداخلي سوى "أمل"، لكن هذه المخلوقة لم تزعزع في نفسي الفكرة فحسب، بل انتزعت من بين ركام تساؤلاتي، سؤالاً، راح يحدق في عيني كمن يتحداني:

- **وهل أثارتك أمل يومًا؟**

كنت إلى أن التقيت "راحيل" أؤمن بأن جسدي ما كان ليطيعني لو همّت نفسي، وأن نفسي سوف تعاندني لو هفت روحي، وأن روحي سوف ترى الخروجَ أهون من الميل إلى امرأة سوى أمل.

لكن – ببساطة – شيئًا من هذا لم يحدث، ففي اللحظة التي فتحتْ أبوابها أمامي، شعرتُ بجسدي كتلة من لظى، تشتاق إلى انطفاء على شواطئ جسدها، وتحولت نفسي وروحي وقلبي إلى قوارب مهيأة لتُقلّ هذا الراغبَ بداخلي، إلى أعمق نقطة في يمّها، وغدت مسام جَسَدَي مجاديف تهدر في سبيل تحقيق تلك الرغبة الفائرة.

٨ أعرضْ عن هذا!

لم تكن "راحيل" تعرف، ولا أظنها تعرف حتى اليوم، أنني كنت قد بصمت بالأصابع كلها على كل شروطها، من قبل أن أعرف أصلاً أن لها شروطًا، فقد تهيأ لي وقتها أن هذه المرأة صُنعت بالفعل من طينة أخرى، وأنها الوحيدة التي يمكنها أن تبعث في جسدي وروحي تلك المشاعر التي انتابتني وقتها، وقررتُ أن أختبر تلك المشاعر حتى لو مع ظلها حين يتلوى على الجدار.

ولكنها، كما كانت زليختي، فقد كنت يوسفَها، ولم يكن البرهان الذي جاءني سوى كلمات أخرى من الفم نفسه، كفيلة بأن تخرجني من الجنة إلى حين:

- **أريد منك نسلاً.**

احتجتُ إلى لحظات كي أستوعب تلك الكلمات التي همست بها في أذني، ليس فقط لما انكشف من عالمها لّما مالت علي بجسدها، لكن لأنها تستخدم عربية تشبه تلك التي كنا نضحك عليها في السينما المصرية،

عندما يغازل شيبوب محبوبته في غفلة عن فريد شوقي والمخرج، لذا فقد احتجتُ إلى لحظات لكي أتأكد إن كان ما تقوله حقيقة أم مشهداً في فيلم، كما أن رغبتي في الضحك اشتعلت أمام كلمة "نسل"، التي لا تذكرني سوى بالأرانب الصغيرة الملونة وهي تفر من باب الغرفة التي خصصتها لها أمي على سطح البيت.

غرابة الشرط الذي جعلته الجسرَ الوحيد للمرور إلى جنتها، كان آخر ما انتبهت إليه، فاحترت هل أمرُّ إلى رغبتي على بساط الضحك، أم أستسلم لنبتة رعب شعرتُ بها تشق تربة الصدر وتندفع صوب القلب فتعتصره. رأيتني أضع بذرتي الأولى في رحم امرأة لا أعرف عنها سوى أنها خلخلت كل ثوابتي وأفقدتني ما ظننته هوية طوال سنين.

أعادتني إليها عندما مالت علي كل الميل، وقالت:

- **أتمنى لو كانت بنتاً...**

خرجت كلماتها ملونة- ليس فقط بالإغواء، فهو واقع- لكنها جاءت من قاموس عربي لا تعرف إن كان مصريًا أم شاميًا أم عراقيًا.

كانت تتعمد أن تزداد المساحة التي يتلاصق فيها جسدانا، كأنما تضبط كلماتها على إيقاع جسدها، بل، جسدي، الذي كانت تستشعر نبضه، وعندما بات مؤكداً لها أنني لم أعد موجوداً سوى بالقدر الذي يسمح به حضورُها، أردفتْ:

- **تخيل معي، سوف تكون رحمًا يجمع الديانات الإبراهيمية الثلاث.**

رغم سطوة ذلك الحضور الطاغي، اتضحت لي معالم الصورة، بدا لي العرض غريبًا ومنفرًا، أتذكر الآن تلك الرعشة التي انتابتني عندما لملمتُ أطرافه فاتضحت أبعاده في ذهني، لكنني أعترف ـ أيضًا ـ باستسلامي للإغواء الغريب الذي انطوى عليه، ثمة ما لم أنجح في مقاومته، رغم أن عقلي ردد على أذني صوتَه الداخلي وقتها محللاً روابط الأمر:

- **أنا المسلم ابن القبطية، فهي بلا شك ممثلة الديانة الإبراهيمية الغائبة!**

لا أعرف كيف وصلتُ إلى غرفتي في الطابق السفلي من الفندق، لا يحتفظ عقلي بأية مسارات واضحة، فقط مشاعر وتهويمات، آخرها تلك النظرة التي شيعتني بها، لم تكن أقل إغواء عن سابقاتها وإن كان بريقها أشد وهي تردد جملتها الأخيرة لتلك الليلة:

- **أعرف أن العرض غريب، لكنني واثقة أنك سوف تفكر، لا تنس أنك يوسف.**

٩ نظرية العسيلة، برهان الرب

كانت واضحة بطريقة أربكتني، لا أفهم حتى الآن الآلية التي ساعدتني على الصمود، ولا أعرف إن كنت قادرًا حتى على وصف خليط المشاعر التي انتابتني لعدة ليال.

ساعدني تصور رومانسي بنيته عن "عسيلة الرجل" و"عسيلة المرأة"، وقناعتي بأهمية أن يحتفظ كل منهما ـ لمن يهوى ـ بقطفته الأولى.

لعدة ليال ظننت أن هذا المصطلح ـ الذي سمعته للمرة الأولى من "منذر" واحتكرته بعد ذلك لنفسي ضمن نظرية خاصة أسستها وشرحتها لأمل ـ هو برهان ربي، مثل البرهان الذي حال دون انهيار يوسف الصديق أمام امرأة العزيز. كنت أردد ذلك بيني وبين نفسي سعيدًا كلما عدت من غرفتها سالمًا.

لم تشكني إلى مدير الفندق ولم تغير معاملتها لي، ظلت ليلة وراء ليلة تطلبني، فأصعد وقد سكنني اليقين بأنها ليلةُ السقوط، وما إن تتهيأ لي وأتهيأ لها، حتى ينتابني فزع لا أعرفه، أرى بعيني طفلتي وهي

تتشكل في رحم هذه المخلوقة، لتنمو هناك، في تلك الأرض التي تحول بيني وبينها آلاف الحواجز والسدود، رغم قصر المسافات وتلاصق الحدود.

كانت سعادتي بالنجاة في كل مرة ـ رغم محاولاتها المتكررة ـ تعادل خوفي من العودة إلى خدمة صف السيارات.

للحظات قليلة قبل أن أضع رأسي على وسادتي كل ليلة، أسترجع نظريتي عن العسيلة فتنتفخ بالونات السعادة في رئتي، وأجدني أتمتم:

- **فليكن، حتى لو كلفني الأمر مغادرة الفندق، أو شرم الشيخ كلها.**

ولكن سرعان ما أسمع صوت انفجارات بالوناتي المؤقتة، حينما يستدعي خيالي المغادرُ نحو النوم، طيفَها الجهنمي، فيجلب معه شياطين من نوع آخر، حضرت فقط لتعذبني في الساعات التي أقضيها ساهرًا في انتظار الصباح، مقاومًا رغبتي في التحليق إلى غرفتها.

أظل ساهرًا أستجدي النوم ولا أجده، كم مرة ضبطت نفسي وقد اتخذت قراري بالعودة إلى غرفتها في منتصف الليل، أو قبيل الفجر:

- **وليذهب البرهان من حيث أتى.**

كانت القبضة التي تعتصر قلبي كل ليلة أغلظ من قدرتي على الصمود، ولا أعرف ـ حتى الآن ـ كيف صمدت كل تلك الليالي!

١٠ مشروب العظماء

كنت قد اطمأننت إلى برهان ربي، حين فاجأتني بالنزول.

إذا كانت حواء قد نجحت في إسقاط آدم من جنته، فحوائي نزلت من جنتها إلى ما تحت الأرض.

كيف استدلت على غرفتي في سكن الموظفين الرث، كيف مرت وسط كل هذه الفوضى التي يكومونها بين الخدم ويوارونها عن أعين السادة؟ أين اختفى زملائي الذين يعج بهم المكان في كل وقت؟

أسئلة تستحق البحث عن إجابات، لكنها كلها تراجعت أمام ما حدث.

طرقات مهذبة رقيقة في منطقة لا تعرف عن الرقة إلا التحضر لاستعمالها هناك مع السادة.

توجستُ، وانتبهتُ لحظتها فقط إلى قدر الهدوء الذي يخيم على المكان على غير العادة!

منشغلاً بتساؤلي: أين اختفت الضوضاء؟! فتحتُ الباب للطارق الغريب، فوجدتها أمامي، شهيّة كحبة توت في كف ملاك.

في لحظات، كانت قد دلفت إلى الداخل، تحدثتْ بلكنتها المثيرة ـ وبطريقة أفلام الأبيض والأسود أيضًا ـ عن واجب الضيافة وأخلاق الجنتلمان، وذوق وجدعنة أولاد البلد، مزجتْ ذلك بحديث غريب عن مشاعر الوحدة، شرحت لي كم هي صعبة، خصوصًا عند النساء ذوات الذوق الفريد، طلبت مني أن أقبَلها فقط ضيفة في دردشة ودية، قالت:

- **لن تكلفك استضافتي سوى بعض الوقت وكأسين لتناول المشروب الذي أحضرته معي.**

سحبتْ من حقيبتها الصغيرة زجاجةً رشيقة بحواف مذهبة.

- **إنه مشروب العظماء، لن تنسى مذاقه أو إحساسه.**

لم تقبل مزحتي حين ألمحتُ إلى أنها أساءت اختيار من تقاسمه مشروب العظماء، وبنظرة خشيتُ معها أن أذوب، قالت:

- **أنت فقط لا تعرف قيمة نفسك.**

استرختْ كقط يألف مكانه، وطلبت كأسين، رحت أفتش في أرجاء المكان عن شيء نظيف يمكن أن نستعمله كأكواب، كانت تراقب تحركاتي وتتحدث، قالت إنها لم تغير رغبتها ولم تتراجع عن أمنيتها التي همستْ بها في أذني قبل ليال. برشاقة، تخففتْ من بعض ثيابها وأردفتْ:

- **لكنني أحترم رغبتك.**

ألقت بقطعة ثيابها نحوي فاحترت بين العبق المنطلق تجاهي وبين ضحكتها التي قطعتها كلماتُها وهي تستكمل ما بدأته:

- **على رأيكم يا مصريين كل شيء بالخناق إلا ..... بالاتفاق.**

خفضتْ صوتَها إلى حد الهمس، عندما نطقت المفردة بين الكلمتين المسجوعتين: الخناق والاتفاق، فتجسد فُجْرُ الكلمة القبيحة أكثر عندما تعمدت همسها. ارتبكتُ ولم أدر ما يجب علي فعله، بينما ألتقطُ قطعة الثوب التي لامست وجهي قبل أن تسقط، تذكرتُ نظرية العسيلة ورأيت بعيني أمل تمرق من أمامي، وشممت رائحة أمي، وسمعت صوتها تعابثني كعادتها وهي تشاهد التليفزيون في صالة البيت، سمعتُ ضجيج شارعنا ورأيتُ أمَّ أمل تطل علي من شباكها المجاور وتهمس لجارتها شيئًا عني أستطيع أن أتكهن به: **ولد محترم وفي حاله.**

نهضتْ من مجلسها، مرقت صوبي ففاح عبيرُها وانمحت كل المشاهد من أمامي، ولدهشتي، توجهتْ مباشرة نحو سريري، مدت يدها وخرجت بكأسين لامعين، ومن دون أدنى تقدير لجثتي الغارقة في عالمها، صبّت من زجاجتها كميتين متساويتين من شراب سماوي اللون، ورفعتْ كأسًا تجاهي.

- **في صحة حسن النية وتدشين عهد الصداقة.**

من عالمي، مددتُ يدًا نحو عالمها، قبضتُ الكأس وعُدت، لكن قبضة من مرمر مصقول مرقت وأمسكت بمعصمي، بضغطة رقيقة حانية حالت دون وصول الكأس إلى شفتي:

- **لمرة أخيرة، أعيد العرض عليك، تقبل فيتم، أو ترفض فننساه.**

طلبتْ مني أن أمارس الحب معها إلى أن يتأكد لها حملُها.

- **أريد لرحمي الموسوي، أن يستقبل طفلة من نطفة تشكّلت من صلبِ محمدي في رحم مريمي.**

تعلقتْ بمعصمي الذي لم تفلته بعد من قبضتها الصغيرة، أحسست بصهيل نعومتها يستجدي جسدي، ولما نفرتُ من خوف، ازداد تشبثها وهي تضغط مخارج حروفها:

- **في المقابل سوف تحصل على مبلغ يجعلك ثريًا للبقية الباقية من عمرك، وربما يمتد بظله على أولادك من بعدك، فهم دائمًا سيكونون أشقاءَ طفلتي.**

أصابني الدوار من تلك الطريقة ومن هذا الحضور، وعدتني بأنها سوف ترحل فور أن يتأكد لها فوزُها، هكذا قالت:

- **لن ترى لي وجهًا بعد ذلك أبدًا.**

وعندما رأتني غير قادر على النطق، ارتمت بجسدها في حضني، ومررت شفتين ملتهبتين على ما طالته من عنقي وذقني، كانت تردد بين كل قبلة وأختها:

- **اعتبره حلمًا، غلطة، نزوة. . .، أو صفقة، لك الخيار.**

أعرف أن النساء يُجدن الادعاء، لكن هل يمكن لامرأة أن تأمر جسدَها فيذوب كما شعرت بجسد راحيل بين معصمَيّ؟! هل يمكن لامرأةـ مهما بلغت درجة احترافهاـ أن تضبط حرارة جسدها وأنّة صوتها كما ضبطتهما وهي تتشبث بي وترجوني أن أقبل مغامرتها؟

لو قُدر لي أن أجزم بأن الرغبة تبدأ وتنتهي من العقل، مهما اشتدت وطأة الإغراء، لفعلت الآن، فقد كنت رجلين؛ أحدهما مندلق في لجة اللذة التي انفرطت بين ذراعيه، والآخر لا يسمع في الدنيا سوى جملة تأتيه من عمق مظلم بعيد، يرددها صوت يألفه ولا يجزم بمعرفته:

- **ها هي لعنة "ابن القبطية" تطاردك من جديد، وكالعادة تقسمك نصفين.**

كانت واضحة وصريحة، هل أعجبني ذلك فيها؟ لم تُغوني، لكنها عرضت علي الغواية، أرادتني مدركًا واعيًا.

كانت شبه نائمة بين ذراعي بعد أن ألقت علي صفقتها، خلّصتُ الكأس من بين أصابعها، وضعتها وكأسي على الطاولة الصغيرة خلفنا، حملتها برفق ومددتها على سريري، متأوهةً فتحتْ عينيها وحدقت في. سألتُهاـ وهي ضيفتيـ عن مصدر معرفتها بأمر ديانتي المزدوجة، لم تتردد في إخباري وبالصراحة ذاتها، لم أكن أدرك أنني بسؤالي فتحت بابًا لغواية الحكي ودلفتُ إلى عوالمها المسحورة.

١١ بولكا وهافا ناجيلا

- **ليست لدي حكاية لأحكيها لك.**

جهدتْ لكي تفتح عينين غالبهما الحزنُ إلا أنه لم يمح ذلك الألقَ المطل من بين أهدابهما. أردفتْ:

- **فأنا الحكاية.**

رفعتْ ذراعها الممددة إلى جوار جسدها المسترخي على سريري. تتبعتُ الجهةَ التي أشار إليها إصبعها الدقيق، اختفت العديد من الأغراض التي اعتدتُ أن تظل مبعثرة طوال الوقت، هناك من قام بلملمة كتبي وترتيبها في تلك الزاوية، لم يجهد نفسه كثيراً، فقط اكتفى برصها حسب أحجامها وصنع منها ما يشبه الطاولة، إلى جوارها وضع بعناية أحذيتي وشبشبي. ***من فعل ذلك، ومتى؟***

- **من فضلك أدر الموسيقى.**

كان إصبعها ما زال محلقًا في الاتجاه نفسه، أعدتُ عيني إلى هناك، الآن فقط انتبهت إلى سر ترتيب الكتب، ثمة جهاز "ساوند سيستم" أسود

فاخر يقبع فوقها في استعلاء تنبعث من حوافه الفضية لمعة تفضح فقر الجدران. *من ساعدها لكي تدخل الى غرفتي وكيف؟*

ربطتُ بين طلبها وبين الساوند سيستم المبهر، فاتجهتُ ناحيته، تفحصتُ أزراره الرقيقة، بحثتُ عن زر التشغيل وضغطته، وتوجهت عائدًا صوبها. بينما إيقاعات موسيقى هادئة تتغلغل في أنفاس المكان.

كانت قد أراحت ذراعها إلى جانب جسدها مرة أخرى، وأغمضتْ عينيها، انتهزتُ الفرصة ورحت أتفحص هذا الملاك المسترخي في سريري. كأنما أحسّتْ ببصري وهو يتدحرج على تفاصيلها الفاتنة، فمالت بوجهها صوبي، كدت أظنها تراني وهي مغمضة العينين. بهدوء راحت تدندن الإيقاع الذي كان قد أحكم سيطرته على الغرفة. فجأة فتحت عينيها فكأنني كنت مختبأ وانكشفتُ. هتفتْ بحماس: **بولكا**، ثم صمتت لفترة طويلة، فظننتها تهرف من إعياء، قبل أن تعاود الحديث.

- **بولكا، تعزفها كفا عازف الأكورديون العجوز، يكاد كتفاه ينوءان بحمله الذي يتراقص بين ذراعيه كثعبان سمين.**

تهتُ في تلك الصورة البارعة التي نجحتْ في ترديدها بعربية فصيحة. اقتربتُ خطوة، متفاديًا النظر إلى عينيها الساطعتين تجاهي، لم تتغير وجهة نظرتها صوبي، ولكن بريق عينيها اكتسب لمعة مختلفة، كأنما تنظر من خلالي ولا تنظر إلي.

- **كانت ماما تقول لي دائمًا: لا تنسي أنك يهودية، فأنظر إلى بابا، يغمز لي بعينيه ويقول: مصرية، فتنفلتَ الضحكة من بين أسناني كالفرقعة المكتومة، وأنتظر توبيخ ماما ـ له ولي، قبل أن تختتم كلامها بعبارتها التي اجترأت ذات يوم وكتبتها بالعبرية على لوحة وعلقتها في صالة البيت: "لا تنس أن المصريين طردوكم طردة الكلاب"**

لاذت مرة أخرى بصمتها، فعادت البولكا لصدارة المسمع، كانت شفتاها تتمتمان بهدوء، لم أعد أعرف إن كانتا ترددان الإيقاع أم تستحضران الكلمات من نبع الذاكرة.

- **.. لم تكن أول مرة يسمع فيها بابا تلك العبارة منها، لكنها كانت المرة الأولى التي أراه فيها كائنًا مختلفًا، كاد يدمر البيت على رأس ماما. في حياتي لا أنسى نظرة الغضب تلك في عينيه، ولا أنسى نظرة الذعر في عينيها، تحول هذا الرجل الهش الرقيق إلى كتلة متحركة من الغضب، لم يهدأ إلا عندما نفّذت ماما أوامره وقامت بحرق اللوحة أمامنا، ولم تعد الوداعة إلى عينيه في حضرتها إلا بعد شهور، اعتذرتْ خلالها كثيراً؛ كانت تحبه، ولكنها كانت أيضًا تريد تخليصه من جرح سافر إليه واستقر في قلبه رغم السنين يسميه هو مصر.**

كانت كالمخدرة ما زالت، تخاطب كائنات خيالية، جذبتني كلماتُها التي تشبه الترتيل، فتسمرتُ مكاني، كنت أخشى إن رمشتُ أن تنتبه

فتكف، تخيل مخلوقة بهذه الرقة والعذوبة مسترخية في سريرك تحكي لك، فهل تغامر بأي حركة تفسد عليك هذا الألق؟

- **هل أحببتَ البولكا؟**

لم يعد الأمر في حاجة إلى تأويل، لا بد وأنها تسألني أنا، أنا؛ فقد نظرتْ مباشرة في عيني. هل جربتَ مرة وأنت صغير أن تنافس أخاك الأصغر في اختبار حبس النفس تحت الماء؟ هل تتذكر تلك الثواني الإضافية التي تجاهد فيها من أجل البقاء غاطسًا إلى أن يتأكد لك أنك الفائز؟ هل تتذكر حالتك وأنت تخرج برأسك أخيرًا لتصطدم بالهواء، هل تذكر صوت الشهقة التي تخرج رغمًا عنك وذلك الألم الحاد الذي يسري كالأشواك في رئتيك وحلقك؟ بالضبط هذا ما حدث لي حين تيقنتُ أنه بإمكاني الآن أن أسترخي من دون أن تتوقف هي عن الحكي.

شهقتُ محاولاً تذكر السؤال لأجيبها ولم أفلح. ولكن يبدو أن الشهقة قد رسمت على وجهي ملامح ما، اعتبرتها هي رفضًا أو استياءً، لأن غيمة حزن مرقت سريعًا على صفحة وجهها، أعقبتها دمعتان، لجمالهما احترت بين شعوري بالحزن لأجل حزنها أو الإعجاب بهذا الحزن الجميل.

- **سامحني لو كانت الموسيقى لم تعجبك.**

لم تنتظر مني إجابة، عادت لتخاطب كائناتها، على الأقل هي لا تشهق مثلي وتفشل في رسم ملامح وجهها بما يليق بهذا البهاء.

- **أفضّل البولكا من دون كلمات، وكذلك كان بابا . . .**

صمتتْ طويلاً، وظللتُ معلّقًا عيني بتلك الشفتين اللتين تتمتمان منتظرًا أن تخرج الكلماتُ إلى حيز السمع مرة أخرى. أردفتْ:

- **وظننت أنك ستفضلها أيضًا.**

هل الوقت مناسب لأقول لها إنني لم أعرف في حياتي ما البولكا!

قبل أن أحسم ترددي، كانت قد أضافت لغزًا جديدًا إلى هواء الغرفة، بعد أن أشاحت بوجهها غاضبة من شئ ما، رجوت -لحظتها- أن لا يكون أنا.

- **لكن ماما كانت تتحداني بالهافا ناجيلا، وتصرخ في وجهي "لن يصدح في زفافك غيرُها"**

هل انتبهتْ إلى أن وجهي تحول إلى ما يشبه علامة التعجب، أريد أن أستمع إليها، لا أريد أن أستوقفها حتى للتساؤل، ولكن هل عرفتُ البولكا لأعرف هذه الناجيلا[1]! حمدتُ الله أنها لم تعاملني بجهلي، وعاملتني بكرمها فاستكملتْ حديثها العذب:

1- هافا ناجيلا (بالعبرية: הבה נגילה) أغنية يهودية شعبية على لحن أوكرانى شعبي من منطقة بوكوفينا، وتعني "دعونا نحتفل"، يغنيها اليهود والغجر في احتفالاتهم. يعتقد أن كلمات الأغنية كُتبت عام ١٩١٧م احتفالاً بانتصار بريطانيا في الحرب العالمية الأولى في فلسطين وإعلان وعد بلفور، تم إسماع الأغنية في حفل في القدس في تلك السنة وتم تسجيلها عام ١٩١٨م. البولكا، موسيقى ورقصة خفيفة مرحة أصلها من بوهيميا ارتبطت بأعراس اليهود في مصر. ويكيبيديا.

- رحل بابا، فقررت أن أعاقبها؛ رفضتُ الزواج، وضعت كل العناد الذي ورثته عنها في هذا الرفض، ورحت أبحث عن كل فرصة لتأجيل الصراع من دون خضوع لرغبتها، كان التعليم هو الوسيلة الأقوى، ألقيتُ بنفسي فيه مدفوعة بالعند. ولكن العند تحول بعد قليل إلى رغبة عارمة في معرفة أصول الأشياء، لماذا طرد المصريون اليهود كالكلاب ـكما تقول ماما، ولماذا هم دائما مطرودون، ما الذي جعل بابا غير قادر على تصور نفسه أي شئ سوى مصري رغم أنهم طردوه، ما المشكلة في اليهود حتى يطاردهم العالم، أم أن المشكلة في العالم نفسه؟ تقول ماما إن المشكلة في المسلمين، هي دائمًا ترى المشكلة في الآخر، ولكن لم يكن هتلر مسلمًا، ولم يكن الإسلام موجوداً عندما طردهم الفراعنة، لقد تغيرت اليهودية نفسها منذ ذلك التاريخ وانقسم أحبارها ولكن ظلت كراهية العالم لهم هي القاسم المشترك بينهم!

اخترت دراسة اللاهوت وانغمست في القراءة والبحث، خرجت من دين إلى دين ومن كتاب إلى كتاب، وجدت الفكرة دائمًا واحدة؛ إنه الخوف، الخوف يقود الإنسان إلى محاولة الوصول إلى يقين يطمئنه، يظل يقلب وجهه في السماء باحثًا عن فكرة تجعله يمضي مطمئنًا في الحياة، يفكر طويلاً وكلما اطمأن لفكرة تهيأتْ له صحتُها نشرها فانتشرت وصارت عقيدة ينبت فيها بذور طمأنينته إلى أن يجيء من يدفعه الخوف إلى التقليب في التربة، يفكر ويطور ويضيف أو ينتقص، ويخرج بتصور جديد يستنبت فيه بذور أمانه ويثير ضغينة الآخر.

أخذتني الأفكار وأيقنت أن الخوف هو إله الإنسان الأوحد، وعندها قررت أن أواجه إلهي ولا أتخفى وراء حجاب، قلت لماما: لن أتزوج يهوديًا. فزعتْ، طمأنتُها، أو هكذا ظننت، أضفتُ: ولا مسلمًا ولا مسيحيًا، وقبل أن تبدأ في الصراخ قلت حاسمة الأمر: سوف أتزوج إنسانًا فحسب، ولست واثقة أنني سوف أجده، وإلى أن يحدث ذلك، لن أقبل النقاش في فكرة الزواج.

قرأت عن صاحبات الرايات الحمر، هن نساء عشن في أرض العرب قديمًا، يستقبلن الرجال في خيامهن من دون شرط، كانت القاعدة إذا حملت واحدة من هؤلاء، فإن الولد يكون لمن تسميه هي، وإن لم ترغب فإنه ابن الجميع، تملكتني الفكرة، أعرف أنها تخالف كل الديانات وكل مساعي التحضر وتنظيم المجتمعات، لكن يظل لها بريقها عند فتاة ترفض أن يُصنّف ابنها بدين يثير كراهية الجميع، حتى بين أشباهه فإنه يهودي شرقي ذو مرتبة متدنية، حلمتُ وقتها بأن يضاجعني من كل دين على وجه الأرض رجل، وعندما يلتقط رحمي البذرة ويتكور بطني بابن الإنسان، أجمعهم جميعًا وأقول لهم كلكم آباؤه، فليمرح بينكم إلى أن يكبر، وحين يختار عروسًا زوجوه، واستقبلوا نسلهما بشراً جديداً لا ينكره أحد ولا يمتلكه أحد.

صرت أتحدث بهذا الحلم بين زملاء الدراسة، اعتبرني كثيرون مجنونة، كثيرون رأوني فاجرة، البعض تحاشاني حتى لا يسقط في نظر المجتمع، طلبني مدير المعهد ووبخني، طلب مني أن أكف عن ترديد

مثل هذه الهرطقات، داعب خدي وقال لي إنني فاتنة الجمال، وحين همّ بتقبيلي بصقتُ في وجهه، شممتُ من فمه رائحة عفن لم أستطع التخلص منها كلما رأيت رجل دين، أمسك بمعصمي وهددني بصوت يشبه الفحيح إن تحدثت عما دار في مكتبه. فاختلط قرفي بالخوف، إنه الخوف مرة أخرى يدفعني للبحث عن إله غير منحاز.

مدّتْ كفَّها تجاهي كأنما تتأكد من وجودي ما زلت في حضرتها، رمقتني بابتسامة لم أفهم معناها، وأطالت النظر إلى عيني حتى ارتبكتُ وتململتُ في وقفتي، فأشاحت بوجهها عني من غير نفور، وقالت:

- **تعرف! ليست مصادفة أن يكون اسمك يوسف، فأنت ابن يعقوب "ماسك كعب القدم" الذي ابيضت عيناه من الحزن.**

أعرف النبي يعقوب، وأعرف قصة بكائه حزنًا على يوسف، ولكنني لم أسمع بماسك كعب القدم هذه من قبل. لم تتركني طويلاً لحيرتي، قالت:

- **يقول سفر التكوين إن يعقوب وأخاه التوأم عيسو، كانا يتصارعان معًا في رحم أمهما "رفقة" امرأة إسحاق، وعندما سألت رفقة الله عن سبب ذلك الصراع، قال لها إنهما سيؤسسان أمتين مختلفتين، ويكونان دائمًا في تنافس، وفي الحقيقة فإن الأكبر سوف يخدم الأصغر. لَم تُخبر رفقة زوجَها إسحاق بذلك بل احتفظت به في قلبها. كان عيسو أول من وُلد، وولد أخوه يعقوب (إسرائيل)**

بعده مُباشرَةً وكان يمسك بكعب قدم أخيه، ولذلك سمي ياكوف أي (الكعب) المُشتق من الكلمة العبرية، فضّل الأبُ عيسو الذي كان صياداً، ولكن الأم فضّلت يعقوب الذي كان راعيًا. هل تعرف لماذا بكى يعقوب حتى ابيضت عيناه؟

كعادتها لم تكن تنتظر مني إجابة، كانت تثير السؤال لتفتح المجال للمزيد من التدفق والاسترسال، وكنت مشدوداً كوتر مستمتعًا بتلك الحالة من الوصل الغريب.

- **ليس لفقد ابنه فقط، ولكن من الخوف الذي فرّق بين أبنائه، غدروا جميعًا بأخيهم كما غدر هو بأخيه من قبل وسرق منه البكورية بمساعدة أمه، وكما غدر به خاله "لابان" بعد ذلك فأعطاه ابنته "ليئة" رغم أنه أحب "راحيل" وطلبها وعمل لأجلها سبع سنوات. خاف يعقوب من الغدر المتسلل في دماء أسرته والذي كان هو فاتحته، ولأنه كان وقتها عجوزاً قليل الحيلة لا يملك سوى البكاء، بكى. ألم أقل لك إننا ورثة الخوف؟ كما غدرَ يعقوب. . . خافَ الغدرَ، وخاف أبناؤه من غدره بهم لأنهم عرفوا محبته لأخيهم يوسف، ابن راحيل، فغدروا بالأخ الحالم وبالأب العاجز. أرأيت! لقد كان الخوف إلهًا ليعقوب وأسرته.**

أمسكتْ عن الكلام، كأنما الخوف تسرب من بين ثنايا حكايتها إلى قلبها فخافت وصمتت، بقيتُ كالحالم يخشى أن يستيقظ فيتسرب الحلم من بين أهداب عينيه. فهمتُ الآن اسمها (راحيل)، وبدأت أتفهم سر

تعلقها بي، ولكن حيرتي – أو قل خوفي- زاد أمام تلك الطريقة التي تستعرض بها تاريخًا من المسلمات توارثناها جيلاً وراء جيل. ***لماذا يبدو الأنبياء مشوهين إلى هذا الحد في كتاب تُفترض فيه القداسة! ألا يفترض بالأنبياء أن يكونوا دائمًا أنبياء؟***

أفقت من تساؤلاتي على بكاء راحيل المكتوم، كانت تبكي بعينين مغمضتين، لكن ارتعاشات جسدها تشي بأنها تقاوم انهياراً وشيكًا، اقتربتُ بحذر، جلستُ إلى جوار جسدها الممدد، تضاربت رغباتي تجاه هذا الكيان المحتشد بالتناقضات، طغت الشفقة على الجميع، وضعت كفي على رأسها ففتحت عينيها، شعرتُ لوهلة أنها لا تعرفني.

- **راحيل، أنا يوسف.**

رمقتني بعينين خائفتين وعادت لنشيجها المكتوم قبل أن تدفع الكلمات من بين شفتيها دفعًا.

- **لم يكونوا بعد يهوداً يا يوسف.**

على استحياء، حركتُ يدي متلمسًا جبينها، فقد ظننت أنها تهذي وربما أصابتها حمى، وضعتْ كفها فوق كفي، كانت الحرارة المنبعثة من باطنها أقوى بكثير من تلك التي تشعر بها راحتي على جبهتها، قالت:

- **ولم يطهرهم من ذلك الغدر سواك، أنت، يا يوسف، يا ابن راحيل.**

نقلتْ كفي من فوق جبهتها وضمتها إلى صدرها، تشبثتْ بها، وأطلقتْ عينيها في وجهي، وقالت:

- **لم يطهرهم سوى يوسف، ابن راحيل، ابني . . .**

سحبتُ كفي، بعد أن أصابتني كلمتُها بالرعب، صدرت منها كلمة ابني حارةً كأنها الحقيقة المجردة، نهضتُ واقفًا، فعاجلتني كأنما قرأت فزعي:

- **يوسف ابن يعقوب من راحيل التي أحبها، ولذلك فقد أحبه. أنت ابن المحبة يا يوسف.**

أي عالم هذا الذي تقودني إليه تلك المخلوقة؟! أنا ابن المحبة بالفعل، وهل – غير الحب– يقدر على أن يفتح ذراعي جدي الصعيدي القبطي ليسلم ابنته إلى جاره المسلم؟! وهل –سوى المحبة– يدفع بحسين ابن أشراف الصعيد ليقترن بابنة الأقباط؟ هل غير المحبة يجعل جدتي تصبر على الحياة وتموت أسفًا لأنها لم تعتذر لحسين إلى أن غاب عن الدنيا لأنها رفضته ذات يوم وقاطعت بيت ابنتها؟ ماذا – غير الحب– يربط بين هؤلاء البشر الذين امتلأ كل منهم بيقينه الخاص كأنما لا يقين غيره؟

أنا ابن المحبة حقًا يا راحيل. لكنني لست ابنك، أنا ابن حسين ومريم، ابن اثنين تجاهلا كَومةً من الأساطير تراكمت حتى بتنا لا نستطيع سلخها عن عقولنا، ابن اثنين أدارا ظهراهما لأفكار سافرت عبر الزمان والمكان، فحكمتنا وجردتنا من إنسانيتنا وصنفتنا كالبضائع، أنا ابن اثنين

لم يفكرا وهما يتبادلان المحبة أنهما يبعثان إلى العالم بكائن آخر سوف يدفع ثمن محبتهما إلى العالم الذي لا يرحم.

مستمدًا الدفءَ من رفيف قلبها تحت يدي المرتاحة على صدرها، ومدفوعًا بجمرة سؤال لم أُطق قبضَها أكثر من ذلك همستُ لها:

- **كيف لم يكونوا يهوداً!**

تحركتْ للمرة الأولى، سحبتْ جسدها إلى الأعلى وأقامت نصفها متكئة على خشب سريري الذي تمنيت لو كان مبطنًا بالحرير والقطيفة، لكنه كان خشبًا كالح اللون من كثرة العابرين عليه، قالت:

- **لم يكن موسى قد خُلق بعد.**

لم تمهلني طويلاً لمحاولة ترتيب التواريخ في ذهني، كورتْ قبضتها الصغيرة وأضافت بوضوح، ومن دون همس، كأنما أفاقت للتو من حلم طويل:

- **كأن اليهودية دين احتكرته عائلة! لم يكن بنو إسرائيل يهوداً عندما هاجرت أسرة يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم إلى مصر بطلب من يوسف المغدور بعد أن وصل إلى منصب هام في حكم مصر...، تعرف القصة؟**

اكتفيت بهزة من رأسي، متابعًا كلماتها بدقة، متعجبًا تحولها، كانت كمن أفاق من غفوة ليدلي بتصريحه الأخير.

انشغلتُ عن كلامها بهيئتها الجديدة، لم أمنع نفسي من الدهشة، ***هل هناك في الدنيا من يشغل نفسه بهذه الأمور وبمثل هذه الدقة، وكيف يكون بمثل هذا الجمال؟!*** ضبطتُ نفسي متلبسًا بالابتسام، وكدت أتحول إلى القهقهة إلا أن تركيبة جملتها الأخيرة التي تبدو استخلاصًا من كلام كثير لم أسمعه، أعادتني إلى مساحة الدهشة والقلق:

- **إذن لم يكونوا يهودًا، يا يوسف، لأنهم كانوا مسلمين.**

سمعتُ هذا الكلام من أبي، أحتفظُ في قاع ذاكرتي بما تبقى من رذاذه حتى الآن، كنت أظنه يفعل ذلك من أجل حبه لأمي، فكيف يمكنه ـوهو المسلم العابد الذي ما رأيته ترك فرضًا قطـ أن يحبها وهو يراها كما يصفها القرآن في فاتحته من الضالين؟! إما أنه يفهم الآية بشكل مختلف، أو أنه بتأثير العشق لم يعد يأبه لمعناها، أو كما قال مرةً وحيدة وأخيرة في جدال مع صديقه الملتحي: "العشق الذي تلوم عليه، هو من فتح قلبي لرؤية الإسلام كدين إنساني"، لا بد وأن فهمه للقرآن كان مختلفًا، كان صديقه يحذره من شطحات التصوف، وأبي يضحك حتى تبين نواجذه، ويقول بعد أن يكبح جماح سعاله الضاحك: "تعبدون خوفكم ونعبد حبنا". يا الله ها هي راحيل تعيد الكلام ذاته: الخوف والحب.

لم أشاركها ما دار في عقلي من أفكار، كانت قد غابت عن الحضور لوهلة، فلم أعد أراها، كانت عيناي ـكما كانت أمي تصفني ـ مقلوبتين لداخلي، كانت تتسلل إلى جواري وأنا في غرفتي، وحين أفاجأ بوجودها

فأجفل وأقول "لو تدقين الباب! "، تندهش وتقول: "دققت الباب يا ولدي وأذنتَ لي، وابتسمتَ في وجهي وأنا أدخل وراقبتني أمرٌّ قاطعةً المسافة إليك، وشكرتني وأنا أضع القهوة بقربك. . . ، والآن تقول لي لو تدقين الباب، ربنا يرعاك يا يوسف، عيناك مقلوبتان، ترى من داخلك. "

في كل مرة كنت أعتذر لها ولا أتركها حتى ترضى، لكنني – والحق أقول- في كل مرة كنت لا أصدق أنها فعلت، كنت أجدها بجواري تربت على كتفي كأنما نبتت في التو واللحظة. وها هي راحيل تفعل الفعل نفسه، ولكنني الآن -بفضل أمي- مدرك أن السبب عيناي المقلوبتان، تقول: "عينا دماغك تطغيان على عيني رأسك يا يوسف، فانتبه! "

- **الإسلام يا يوسف هو الاستسلام لنظام الخالق واتباع تعاليمه الكونية.**

قمتُ من طرف سريري، كانت ما زالت منهمكة في حديثها حول النقطة نفسها، توضح لي أن الدين في اللغة هو القرض المؤجل واجب السداد، وأن الله اختار هذا المصطلح من لغة العرب ليؤكد أن الأمر الوحيد الذي يُلزم به الناس هو الإسلام، والشريعة الوحيدة للإسلام هي أن يُسلمَ المرءُ الكونَ وكائناته من أذاه، وأن يعرف أن للكون خالقًا واحدًا يحب الخير ويكره الشر، ويجزي بهما. والخير خير الكون والشر ما يقع على الكون من أذى، وللمرء دون ذلك كاملُ الحرية. عاد صوتهُا إلى سمعي، قالت كلامًا كثيرًا بدا لي أنه جزء من أطروحة علمية، عبارات

موزونة ومنمقة لكنها تحتاج إلى قارئ وليس مستمع، أظنها لا تخلو من عشرين إشارة مرجعية على الأقل، تشرح وتوثق ما ورد فيها:

- **وبذلك يكون الإسلام مجموعة القوانين المنظمة للحياة، بهدف ضمان جودتها وعمرانها، من هذه القوانين ما يخص الفردَ في ذاته، وهي أمور لا يمكن الحكم عليها إلا من خلال اعتراف هذا الشخص نفسه بها أو إنكارها، كالإيمان والأفكار التي تدور في العقل، يهوديًا كان أم مسيحيًا أم غير ذلك، ماذا يشعر مثلاً وهو يصلي أو وهو يصوم أو يمارس أي علاقة دينية خاصة مع ربه، هذه أمور خاصة لأنها ـ سواء قام بها الشخص أم لم يقم ـ فلن تضر المجتمع ولن تمس عمرانه ولا تقلل من تحضره، لذلك فإنها ـ منطقيًا ـ تظل متروكة للشخص، لا يؤاخذ أو يُعاقب بها في الدنيا، وعقابه عنها يكون بين يدي ربه.**

أما الجزء الآخر من تلك القوانين، فهو المتعلق مباشرة بالمجتمع، وثيق الصلة بحقوق الآخرين، لذلك فإن الشخص ملزم بها، مسؤول عنها، يُعاقَب في الدنيا على الإخلال بها أو عدم الالتزام بحدودها، كالسرقة والكذب وشهادة الزور مثلاً، والقتل . . . أو غير ذلك مما يتعلق بحقوق الآخرين في المجتمع.

ولو دققت قليلاً، سوف تجد أن كل محرم أو مكروه أو منهي عنه في الدين متعلق بالأساس بحقوق الآخرين: السرقة مثلاً اعتداء على ملكية آخر، والقتل اعتداء على روح أخرى، والزنا اعتداء على حق

آخر وفق مفهوم العرض والشرف، أما النميمة والغيبة فهما اعتداء على حقوق أشخاصٍ بطريقين؛ الأول توجيه اتهامات لهم، والآخر الاعتداء على حقهم في الرد والدفاع لغيابهم. . . وهكذا، وقس على ذلك كل محرم أو مكروه أو غير محبذ.

وذلك لأن منطق الدين هو عمران الأرض عبر التنظيم والتقنين، إذن فكل قانون يتم وضعه في حدود هذا المنطق هو وسيلة صالحة لتنفيذ أهداف الدين في ناحيته المتعلقة بالمجتمع. أما ما يتجاوز تلك الناحية إلى التضييق على حريات الأفراد، وفرض أسلوب تديّن معين عليهم، فهو من باب التزيد على الدين لأنه إلزام لهم بما لا يسألهم عنه سوى الإله الذي اختاروا عبادته.

لو فكرنا في الأمر، بعيداً عن فكرة التعصب لتصور ديني بعينه والتي تؤثر على طريقة استقبال الإنسان للأفكار، فسوف نجد أن الأمور بسيطة جداً ـ كما يفترض لها أن تكون، كن مسلمًا، وهو أمر ليس مقصوراً على شكل عبادة دون غيرها، أو طريقة دون طريقة، إنما أمر إلهي شريعته الوحيدة أن يَسلم من شركِ الكونُ وكائناته حتى تعمر الأرض ويسود السلام.

بعيني رأسي كنت أتابع حماستها المفرطة، محتاراً بين الشخصيتين: التي تحاضرني الآن عن الأديان والتدين بعربية كلاسيكية واضحة المخارج، وتلك التي لم يفارق دفؤها كفي ولم تغادر القشعريرة التي خلفتها شفتاها رقبتي.

وبعيني عقلي كنت منغمسًا في ما تقول، كأنما أحاول تصويره في ذهني الذي طالما كان بصريًا، يستدعي من الماضي الأشياء في صور، تحضر فجأة فتملأ الفراغ أمامي، أرى الآن اللوحة المشغولة بالقشّ الملون بالأخضر المعلقة في غرفة أبي: «بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، كان يسميها شريعة الإله العادل.

كأنما قرأتْ الآية من صورة ذاكرتي، لم أنتبه إلا وهي تعدد بعض الآيات تحفظها بمهارة، وترى أنها جميعها تؤيد فكرتها عن الإسلام، كدين إنساني ناظم لكل الأديان والعبادات، تابعتُها وقد اعترتني دهشة من قدرتها على التواصل مع حواري الصامت:

- **اقرأ معي من سورة البقرة الآية ١٣٢ "وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيه وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ"، وَالآيَة ١٣٣ "أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"، وَاقرأ الآيَة ١٣٦ "قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"، واقرأ الآية ١٤٠ مَن سورة البقرة كذلك "أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ**

نَصَارَى قُلْ آأنتُمْ أعْلَمُ أمِ اللّهُ وَمَنْ أظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عندَهُ مِنَ اللّه وَمَا اللّهُ بغَافلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" وفي سورة آل عمران الآية ٨٤ تقول "قُلْ آمَنَّا باللّه وَمَا أُنزلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزلَ عَلَى إبْرَاهيمَ وَإسْمَاعيلَ وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاط وَمَا أُوتيَ مُوسَى وَعيسَى وَالنَّبيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلمُونَ" .

بعيني رأسي أراها الآن، تتجول أمامي في الغرفة، لم يفارقها جمالُها البارع، لكن حضورها اختلف، بات حضورا حميميًا يمكن التحديق فيه، والإنصات إليه، بل يمكن لمسه. اقتربتُ منها، انتصبتُ أمامها، رددتُ السؤال بين شفتي عدة مرات كأنما أخلصه من جفافه أو ربما ألتمس فيه النجاة من جفاف أصاب حلقي: **إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا تتحولين إلى الإسلام؟**

- **ومن قال لك إنني لست مسلمة!**

هي لا تلعب معي لعبة سؤال مقابل سؤال، إنها تنساب في الشرح كأنما ترقص، رفعت الكأسين من فوق الطاولة، قربت حافتيهما، وقالت: ***في صحة النقاش الجميل***. أمالت الكأس إلى فمي حتى ذقت حلاوته بشفتي، فقبضت عليه ورحت أتجرع منه رشفات صغيرة مستمهلاً ذلك الطعم أطول لحظة ممكنة. بينما احتستْ رشفة واحدة من كأسها قبل أن تستكمل رقصتها المصنوعة من كلمات:

- كثيرون يعتقدون أن الإسلام يستدعي هجر اليهودية أو المسيحية أو غيرهما، باعتبار أن تابعيها ـبلا شكـ مصيرهم نار جهنم التي أعدها الله لغير المسلمين. ولكن إذا كنت استمعت لي جيداً فإن الإسلام هو كل عمل بنيّة الخير وكل فعل يدفع الشر، لم يُعدّ الله نارَه لغير المسلمين إنما أعدها للأشرار، كما جهزَ جنته لكل من أتى الله بقلب سليم، وعمل يقصد وجهه الذي هو السلام والعدل والحق واللطف والصبر والكرم والرحمة، والبر، والعفو والرأفة، والمودة، والإبداع. وإلا قُل لي لو كان الإسلام غير ذلك، فكيف أكون مسلمة؟

لا أريد منك إجابة، فقط أريد منك أن تشترك معي في التفكير، لماذا ينبغي علي أن أكون مسلمة بالمعنى الذي حدده آخرون؟ وإذا أردتُ، فوفق أي معنى من المعاني علي أن أفعل ذلك؟ وفق أي مذهب؟ وإذا عرفتَ أن الفوارق الرئيسة بين كل هذه المذاهب أو معظمها هي فوارق دنيوية لا دينية، هي بمعنى أدق خلافات سياسية، من يحكم من؟ سنة أم إباضية أم شيعة، وكلهم يفسرون النصوص نفسها ويبنون اختلافهم عليها، وبعضهم يبغض الآخر بل ويحل قتل البعض من أجل هذا الفهم، فكأنما الحقيقة غير كل ما يقولون، فالحقيقة هي الحقيقة: أسلم الكونَ وكائناته من أذاك تكن مسلماً والله حسبك من بعد ذلك.

تجرعتُ آخرَ ما حوته الكأس من ثمالة مشروبها الأزرق السماوي، كان صوتُها ما زال محلقًا في جو الغرفة مختلطًا بموسيقى البولكا التي لم تتوقف منذ أن أدرتُ زر الساوند سيستم الرشيق. لكن صوتًا جديدًا أضيف إلى المكان، ليس جديدًا تمامًا، لكنه لم يتردد في هذه الغرفة من قبل، إنه صوت أمي، لم أكن أقرأه من سبورة خيالي كما كانت تمازحني دائمًا، بل أسمعه، هذه المرة كنت أسمع صوتها وهي تحذرني من طغيان عيني دماغي على عيني رأسي: "***يوسف، خل عينيك في رأسك، يا حبيبي***"، تلفتُّ حولي كأنما توقعتُ أن أجدها معنا في الغرفة تربت على كتفي كما كانت، ويا ليتها كانت. لم أجد سوى راحيل، أم يوسف الصديق، ورغم أنها لم تكن توقفت عن شرح أفكارها، فقد احتويتها بين ذراعي بشوق كبير.

١٢ القروي الأخير

أقنعتُ نفسي طويلاً بأنني كنت تحت تأثير المخدر الذي وضعته لي في شرابها السماوي. لطالما أعاد عقلي الباطن هذه الكذبة على ضميري واستعرضاها طويلاً، حتى مللتُ منهما معًا، وادّعيت التصديق.

لكنني، في تلك النقطة العميقة التي لا يمكن خداعها من النفس، أدرك أنني، إن لم أكن في كامل وعيي وصريح رغبتي عندما استسلمت لهذا الحضور العاتي، فقد كنت في كامل نشوتي عندما هَمَمتُ بها وتمرغت معها في وحل الخطيئة.

كنت مشغولاً بمعرفة كيف عثرت علي، روت لي أن الأمر بدأ صدفة عندما استمعت إلى قصتي من منصور، هو أحد عملائها، يرتب لها أمر صفقات تخص اللقى الأثرية التي يهتم بها رجالُ أعمال تعرفهم.

توسط «منصور» لديها لتجد لي وظيفة في أحد فنادق «شرم الشيخ».

من باب الطرافة حكى لها قصتي، لم يكن يعرف أنه أثار بداخلها فكرة طالما سيطرت عليها وهي طالبة تدرس الأديان المقارنة.

أخبرتني ونحن بين المد والجزر، أنها استكملت حكاية «منصور» عن الولد ابن القبطية وهي تراقبني من شباك غرفتي، ضحكتْ وقالت:

- **لم يعرف منصور أنه قدم لي هدية العمر، كل ما حلمت به في حياتي وجدته متجسداً فيك، أضف إليها صورة شاب لا يحمل هذه الصفات فحسب، بل يمثل صورة البراءة كما تخيلت دائمًا كيف يمكن أن تكون؛ بعينين واسعتين صافيتين وقوام ممشوق، لا هو بالغليظ ولا بالطري.**

قالت إنني ذكّرتها، بينما أطل بما أسمته "خفراً" من شباك غرفتي، بقصيدة كتبَتْها وهي مراهقة في وصف الفتى الذي ترغب أن تعشقه وأن يعشقها، همستها لي بالعبرية بينما تقبل كل بقعة من جسدي، ثم ترجمَتْها إلى الإنجليزية على اهتزازات جسدينا في لحظات الطفو، ثم اشتركنا في ترجمتها إلى العربية وضبط إيقاعها بينما نستريح من دفق غادرنا فارغين في انتظار امتلاء جديد.

في الليلة ذاتها كتبنا القصيدة في صياغتها الأخيرة في كراستي الزرقاء، بينما هي مسترخية في دلال على ركبتيّ، كنت أكتب محمولاً على مياه عوالم ثلاثة للغات ثلاث في قارب دافئ تحركه همسات شفتيها في أذني وعلى جسدي.

تجارتْ لِيُنبوعِ ماء

وأرخَتْ عباءةَ الوقتِ على سِدرة الماء، قالت:

يا أنتم، مصفودٌ قلبي

إن ازهرَ، أشرقُ

هاتوا لي قروياً يعشقُ،

أتملَّى فيه صَبَابَتَهُ

عُنقوداً يتراقصُ تحتَ ضياءِ القمرِ

أرقصُ معه،

كي أرقَى

وأرقَّ

أشفَّ

أبدو قِنديلاً سهَّدهُ الأرقُ

دغدغتُها، ملتُ على أذنها أهمس: **ولكنني لست بقروي**. بغنج استشاطت له عروقي قالت:

- **أنت القروي الأخير، أنت آخر سلالة الطمي في زمن التصحر.**

سحبتْ كراستي الزرقاء من فوق ركبتي، واحتلت مكانها، ولفت ذراعيها من خلف وجذبتني إليها.

انسبنا على إيقاع موسيقى لا أعرف من أي نقطة في الكون انبعثت، موسيقى أعرفها ولا أدرك كنهها، كانت تراقصني وتردد بعربية فصيحة لم نصنعها معًا هذه المرة، بقية القصيدة:

لَّما سيأتي، انجلي

يرقص في حَضْرَتي

وارْقُصُ في حَضرته

أسَّاقط منْديلاً بَلَّلَهُ العَرَقُ

أتشقَّقُ،

أنشقُّ وارتدُّ إليه

يُنبتُ في سدْرَتيَّ

وأَنبتُ في سَدْرَتِه

أتوحَّدُ فيه...

اتقطَّرُ عطراً،

يجمعكم من فلوات الأرضِ

يا أنتم، ينقذكم مما عنتم.

شعرت بالغيرة، من خطابها بالجمع، أوقفتُ الرقصة في شدة الرهز، زأرتُ في أذنها: **من "*أنتم*"**؟ قالت: ***المصنِّفون والمصنِّفات***، ولما لاحظتْ فتوري وخشيتْ خروجي من عالمها، تعلقتْ بأعضائي وأردفتْ وهي تبث دفئها في عروقي:

- **ننقذهم معًا يا يوسف، بابننا الذي ننشئه من صلب محمدي مسّته دماء عيسى في رحم موسوي خالص، فينسى الناسُ تصنيفاتهم ويعودون بشراً... مسلمين.**

انفجرتُ من دون ترتيب، وفي أقل من ثانية كانت ناري قد بردت على سطح لوح جليدي سقط بيننا فجأة، إلا أنها- متشبثة بما نالته من دفقي- أردفت بينما تضم جسدها كأيقونة على ما طالته:

- **أتمنى أن تكون بنتًا، لها عيناك.**

صحيح، لقد وضعت لي المخدر في الشراب، لكنني الآن – وتحت تأثير حشيشتها الفاخرة- قادرٌ على أن أعلن أنها كانت خطيئة بمذاق العسل، رأيت في نارها -التي تحرّقتُ حتى احترقت بأوراها- سدرة المنتهى، التي ما كنت أعرف أنها شجرةٌ تحمل كل فواكه الصيف والشتاء معًا. وما زال في ريقي منها- حتى لحظتنا هذه- رحيق توت، ورائحة خوخ، وصبغة رمان، وطراوة مانجو، ومزازة ثمار الجميز التي افتقدتها منذ أن رحلت جدتي وامتنعتُ عن زيارة بلدتنا.

وأضيف - بكامل الوعي الذى أشعر به يسري في شراييني الآن، وقد تدربتُ على الكتابة كما نصحني الطبيب: أنني ما زلت أشم في مسام جلدي -منها -رائحة ليس كمثلها عطر، نهلَ جسدي منها حتى ارتوى. وما زلت أجزم أن أول انزلاق لي إلى جسدها لم يكن فقط محسوسًا بل صاحبته أضواء لم أرها من قبل، أضواء كاشفة كانت تسحبني من أطرافي نحو عوالم سحرية، بل أجزم أنني سمعت لدفقي صوتًا يشبه صوت هسيس الزيت الذي سمعته بعد ذلك من شباك مطبخ «أمل» عندما عدت إليها بذنبي؛ أردت أن ألقي عليها التحية من دون أن ينتبه الأهل.

- **كذاب، وعدتَ الطبيب أن لا تكتب إلا الحقيقة.**

نعم، أنا كذاب، محترف كذب، أكذب حتى أصدق نفسي ولا أعود أصدق سوى الكذبة التي أجدت صياغتها، لا أواجه نفسي بالكذب لأنني أعتبره عملاً غير أخلاقي، لذلك أحوّل الأكاذيبَ إلى حقائق، ما الذي يضير العالم إذا كان ما يسمعه حقيقة أم كذبة إذا كانت في النهاية لا تؤدي إلى شيء!

لكن شعوري بالذنب هذه المرة أثقلَ روحي، فليذهب العالم إلى الجحيم بكذباتي أو من دونها، ولكن "أمل"!

لم أكن قادراً على مواجهة عينيها! اقتربتُ من شباك المطبخ الصغير المطل على الشارع الضيق بين بيتينا، لا أحد يمكنه أن يراني هناك، لا أحد يمر من هذه الحارة الضيقة المهجورة بين بيتين، تعلقتُ بأصابعي على إفريز النافذة، أعرف أنها «أمل»، فالمطبخ ملاذها الذي تستمتع فيه بالوحدة وتستطيع أن تطلق لخيالها العنان من دون رقيب.

١٣ حكاية أمل

كنت واقفة في المطبخ المطل بشباكه على الشارع، عندما خفق قلبي وانتابتني قشعريرة تحركتْ لها جذور شعري الملقى في ضفيرتين طويلتين استرختا على كتفي وتدليتا على ظهري المكشوف في جلباب البيت الفضفاض.

فجأة تحول عقلي نحوك، أم أنك لم تغب أصلاً عنه منذ أن استيقظتُ على حلمي الليلي المعتاد!

لا أعرف، لكنني انتبهت لحظتها إلى أنك -يا يوسف- كنت ضيفًا للمرة الأولى على حلمي في الليلة الفائتة، رأيتك جالسًا بين الرجال في عربة القطار، رأيتك وسط زحام الناس تتابعني وأنا أركض في الشارع الطويل، ورأيتك طفلاً تغني بين الأطفال وتهوي معهم بيديك الفارغتين على الغول المخيف.

تشاغلتُ بما أعد من الطعام، سكبتُ الزيت في الحلة الساخنة على النار، راقبته إلى أن تصاعد دخانه خفيفًا ثم توقف، فعرفتُ أن علي الآن

أن أضيف معيار المياه قبل أن أسكب الأرز المغسول فيه، مددت يدي وأحضرت إناء الماء من فوق الرخامة القريبة، سكبت المياه على الزيت فجأرت زاعقة ثم ما لبثت أن استكانت وراحت تبقبق في غليان متصاعد.

عاودتني القشعريرة ذاتها وتجاوز خفقان قلبي الحدود، كأنما استنشقت ريحك ـ يا يوسف ـ من بعيد، تلك الرائحة التي أعرفها جيداً، وربما لا يعرفها سواي، أنا الوحيدة ـ يا يوسف ـ التي يمكن أن تجزم إن كنت موجوداً في المكان أم أنك بعيد. تعجبتُ كيف أشم ريحك الآن وقد غادرتَ منذ أسابيع إلى «شرم الشيخ»، حزمتَ حقيبتك وغادرت مكسوراً حين حاصرتك اتهامات الجميع بجحود النعمة لرفضك الوظيفة التي توسط لك فيها «منصور» في أحد المنتجعات الفاخرة هناك، أنا الوحيدة التي تعرف سر هذا الرفض وذاك العناد، لم يكن جحوداً منك لنعمة يضعها الله في طريقك بعد أن ضاقت بك سبل الرزق وانقطع الرجاء من العثور على عمل، بدلاً من جلوسك الطويل على النهر لتعود آخر النهار ببضع سمكات ووجه لفحته الشمس، بل كان رفضاً لكل ما يمثله لك «منصور»، وإدراكاً منك لحرصه على انتهاز فرصة تجعله صاحب فضل عليك ـ يا يوسف ـ كما يدعي أنه صاحب الفضل على الحي بأكمله.

حاصرتني رائحتُكَ فأيقنت أنك بالمكان، تعجبت أكثر، فقد هاتفتني من «شرم الشيخ» قبل يومين، صحيح أنني أحسست في صوتك بجرح عميق ينبض، لكنني لم أفلح في استنطاقك بسر هذا الأنين، بحتَ لي بأشواقك وتقاسمنا أحلامنا وحلّقنا في رحاب مستقبل نتمنى صنعه

بأيدينا، تحدثنا طويلاً، ضحكنا سعادة وبكينا حرقة، كنت أشعر بأنك جريح، ثمة جرح جديد لا أعرفه يلون صوتك، ولكنك لم تخبرني بأنك سوف تعود.

ازداد شعوري بوجودك في المكان، وكأنني سمعتُ صوتَ أنفاسك، مصحوبًا بالأنين ذاته الذي كنت أسمعه بعيدًا في خلفية صوتك حين هاتفتني من يومين، كأنما جوقة من النائحات تردد آهات جنائزية من مكان بعيد، أرهفتُ السمع ذاهلة عن الوجود، اختلط علي صوتُ غليان الماء بصوت الأنين، مددت يدي مسرعة فأغلقت النار تحت الطعام، هدأتْ ثورة المياه وتراجع صوت هسيسها الهادر، بينما اشتعلت نارٌ أخرى لا يشعر بها سواي، نار تكوي قلبي قلقًا عليك يا يوسف، ما الذي جرى هناك، ما الذي غيرك؟

- **يوسف، يوسف، هل تسمعني! أكلمك. يوسف، يوسف هل تراني! أقفُ أمامك، على الأقل اسمح لي أن أقرأ ما تكتبه في كراستك الزرقاء تلك. . . ، لا فائدة، سوف أزورك مرة أخرى.**

١٤ حلم أمل

أراني - يا يوسف - أركض مذعورة وسط شوارع مدينة لا أعرفها، حافية القدمين، لم يفلح رعبي في إلهائي عن خجلي من جسد لم يستطع قميصُ النوم الشفاف أن يستره، أتمنى أن يتعثر هذا المجهول الذي يطاردني - وأشعر بلهيب أنفاسه اللاهثة يلفح ظهري - حتى يتسنى لي على الأقل أن ألملم فتحة صدري، أشعر أنه يلفت انتباه المارة والعابرين الذين لم يفكر أحدهم في التدخل لإيقاف هذا الرعب، أخشى أن تخذلني ساقاي فأسقط إذا ما تلفت خلفي لأرى ذلك الممعن في إصراره على اصطيادي، أكتفي بالإنصات إلى وقع خطاه المتسارعة خلفي، وأقيس مدى قربه مني من تلك الزنة الغريبة التي تصدرها أنفاسُه كأنما هي فحيح أفعى.

بدا لي الشارع الذي أركض عبره ممتداً بغير نهاية، بناياته الشاهقة متلاصقة بلا شوارع جانبية، ليس أمامي سوى أن أركض، كنت أستجمع قواي وأدفع جسدي الضئيل إلى الأمام، مقاومة تلك اللزوجة

التي غطت جسدي، وتلك السخونة التي تكاد تحرق قدمي من احتكاكهما بالإسفلت.

لمحتُ نفقًا بدرج يقود إلى أسفل، قصدته آملة أن أجد فيه نهاية هذا العذاب، أقفز، وعلةٌ يطاردها ذئب بري، أنهار على درجات السلم الممسوحة لأجد نفسي في محطة للقطار.

يغيب صوت الذئب وسط ضجيج البشر وصخب القطارات ونداءات الباعة وصياح أمهات ينهرن أطفالهن، لا أشعر بالطمأنينة رغم زحام البشر، أخشى أن يُفقدني صخبُهم وسيلتي الوحيدة لاستشعار الخطر الراكض خلفي.

ألقيتُ بنفسي داخل عربة أول قطار على المحطة، أشعر بالطمأنينة عندما تغلق أبواب العربة وينطلق القطار مصدرًا صوت صرير عنيف، أجول بعيني في الركاب، كل راكب يمسك بين يديه بكتابه، ذاهلاً به عما حوله، بينما طغى صوت التمتمات الصادرة عنهم على كل صوت، كانوا يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار، لفت انتباهي أن الجميع متشابهون، تكاد لحاهم الكثة تغطي صدورهم، البعض يرتدي جلابيب بيضاء قصيرة، بينما تلوك أسنانهم قطعًا متفاوتة الأحجام من خشب السواك، بعضهم تتدلى من بين أصابعه مسبحة بذؤابات خضراء تلمع حباتها في خفوت ضوء العربة، بعضها تنتهي ذؤاباته بصليب فضي يتراقص وفق ايقاعات الأجساد ورجرجة القطار.

ما إن استكان فزعي قليلاً ـ يا يوسف ـ حتى فكرت كيف أستر جسدي المنهار من شدة التعب، تفحصت بعيني النسوة الجالسات بالعربة، لاحظت أنهن جميعًا ترتدين السواد، بعضهن استترن فلا يكاد يبين منهن شيء سوى عينين تحدقان في الفراغ، الأخريات تسترن في زي الراهبات واكتست وجوههن بمسحة من اللامبالاة الوديعة انتفت معها كل محاولاتي لقراءة ما وراء هذه الوجوه.

ازدادت وطأة خجلي من عري جسدي الفائر، تمنيت لو أذوب وأتلاشى تحت وطأة الصهد ولزوجة العرق اللذين يغزوان جسدي، أفقت على ذلك الصوت الذي ظننت أنني نجحت في الفرار منه، تلفت لأجده في الطرف الآخر من العربة يكاد يلتهمني بعينين شائهتين ووجه امحت ملامحه.

ركض باتجاهي، لم تُزد استغاثاتي الركابَ إلا إمعانًا في ما يتمسكون به من كتب، علت تمتماتهم كطنين نحل ضجت به جدران القطار، تحرك الكائن المشوه ناحيتي مكشرًا عن أنيابه، تراجعتُ إلى أقصى ما يمكنني في زاوية العربة، لم يعد في جسدي بقية قوة تمكنني من التفكير حتى في الدفاع عن نفسي، حدقتُ في النسوة الجالسات، تشاغل بعضهن بالتحديق في الفراغ، بعضهن تظاهرن بالإنصات إلى تمتمات أزواجهن، والأخريات انهمكن في توبيخ أطفالهن وإجبارهن على الجلوس والتزام الصمت.

أغمضتُ عيني، كنت أسقط في بئر، ورحت ـ يا يوسف ـ أنتظر صوت ارتطامي بقراره العميق، وعندما طال انتظاري، حركت جفني اللذين كأنما التصقا بعيني، لمحت الكائن المشوه الذي كان يطاردني منهاراً تحت أقدام صبية وصبايا صغيرات انفلتوا من أيدي أمهاتهم، كانوا يدقون بقبضاتهم الرقيقة رأس الوحش الذي انهار بين أقدامهم الصغيرة، كان الأطفال يقذفونه بكل ما تطوله أيديهم ويرددون في صوت واحد أغنية، منحتني الطمأنينة واسترخيتُ على إيقاعها، ومن دون وعي رحت أردد معهم إلى أن هدأت نفسي واستسلمتُ لنوم عميق:

ياستار، ياستار

نط الغول على باب الدار

لف ودار في عيونه شرار

قمنا عليه كويناه بالنار

شافنا كتار؛ فك وطار

يا ستار، ياستار،

نط الغول على باب الدار

حكيتُ لك الحلم كثيراً، كنت تضحك، ضحكتك الصافية القلقة نفسها.

أفرغت كل مخاوفي في لوحات، لعلها تسحب الطاقة السالبة التي يشحنني بها الحلم المكرور، حاولت عبر الألوان الزيتية أن أستنطق ملامح الكابوس، أصحو من نومي كل صباح مملوءة بذلك الإحساس الذي

يخلفه الحلم في قلبي، أصحو معلقة في مساحة بين الرعب والطمأنينة، الرعب من مجهول يطاردني بين بشر تجاهلوني، والطمأنينة التي تسكن روحي عندما أتذكر مشهد الأطفال وهم يقضون على ذلك المجهول.

أصحو مندفعة صوب لوحاتي المشدودة وألواني وأرسم امرأة في جسد غزالة تركض في طريق لا نهاية له وتركض في إثرها كلابُ صيد شرسة تقطر الدماء من بين أسنانها، على جانبي الطريق أشجار تسكنها خيالات رجال تمتد أذرعهم في الفراغ فتعرقل سعي الغزالة الراكضة نحو المدى، تتدلى من الغصون أوراق من كتب صفراء في ذؤاباتها أصلبة وأهلّة وشراشيب مسابح من فصوص الكهرمان. ثمة نسوة منتقبات وأخريات في زي راهبات تعلقن بأفرع الشجر كالدمى تلعب بهن الرياح، هناك في عمق اللوحة وقرب نهاية الطريق المختفية في الظلال رسمتُ أطفالاً، أولاداً وبنات تحلقوا في دائرة يؤدون لعبة اصطياد الغول.

ساعدني الرسم، اقتنصتْ الألوانُ مخاوفي واكتشفتُ ملامحَ الأزمة، إنه الشعور بأننا من عالمين مختلفين، تجاهلناه طويلاً حتى ظننا أنه ليس حقيقة، إلى أن صدمني عالمُك بقسوة اختلافه، عندما ذهبتُ معك لتقديم واجب العزاء في الجدة التي توفيت.

شعرتُ أنه من الواجب علي أن أكون بقربك، أعرف مدى حبك لامرأتك الأسطورية، تلك التي لم تغادر قريتها يومًا، رسمتها حكاياتُك -يا يوسف- في خيالي امرأة لا يطالها الموت، وهبتْ حياتها لحفيدها تكفيرًا عن ذنب أحست بوطأته بعد رحيل زوجها الذي منعتْ نفسها عنه عقابًا له

على ما ظنته وقتها خطيئة كبرى ـ إصراره على زواج ابنتها بأبيك ـ إلا أن الزوج الطيب رحل سريعًا ولم يمنحها الفرصة لتقول له إنها سامحته، كما رحل زوج الابنة كأنما كان طيفًا ومضى.

منذ تلك اللحظة وهي لا ترى في الدنيا سوى يوسفها، سواك.

كان البيت مبنيًا من الطوب اللبن على أطراف حقول ممتدة وسط نخلات عاليات بدت لي بينما أقتربُ من المكان حراسًا طال بهم الوقوف فمالوا بأكتافهم يراقبون عن كثب كنزهم الثمين.

كانت درجات السلم خشنة وشديدة الانحدار، عانيتُ وأنا أصعدها، كدت أكثر من مرة أتشبث بأطراف عباءة المرأة التي سلّمْتَني إليها لتقودني إلى الطابق العلوي. في أول غرفة مررنا بها، لمحتُ صندوقًا خشبيًا يغطيه مفرش من قماش أسود تزينت حوافه بصلبان ورسومات أخرى نُسجت من خيوط وأقمشة بيضاء، قادتنا الغرفة إلى غرفة أخرى أكبر بقليل امتلأت عن آخرها بنساء جلسن على الأرض وانخرطن في بكاء بدا لي مسرحيًا.

كان بعضهن يصرخ في فزع بعيون مشدوهة ومحدقة في الفراغ، غابت المرأة التي اصطحبتني وسط زحام النسوة، وقبل أن أفزع بقليل استقبلتني أمك، كان شعرها أشعث وثوبها الأسود غير مرتب على غير عادتها، كانت وهي قادمة إلي من نهاية الغرفة تتمايل يمينًا ويسارًا فيما

يشبه الرقص وذراعاها ممدودتان إلى أعلى، أنزلتْ ذراعيها وضمتني إلى صدرها، فاستأنست بعد طول قلق.

سارت بي إلى غرفة أخرى صغيرة، كانت الغرفة مظلمة إلا من خيوط ضوء واهن تسللتْ عبر شيش الشباك الخشبي الموارب، في الركن على الأرض شغلت مرتبة صغيرة معظمَ الفراغ، فزعتُ عندما تبين لي - بعد أن اعتادت عيني الظلام - أن جثمان جدتك مسجى على تلك المرتبة، تغطيه ملاءة ملونة، قامت أمك بإزاحة الغطاء عن الوجه ودعتني إلى إلقاء نظرة الوداع.

ها هي الجدة التي كنت تسميها "صانعة روحك"، لم أكن حتى تلك اللحظة أعي ما معنى الموت، لم أجده مخيفًا - يا يوسف - كما صورته مخيلتي، في تلك اللحظة لم يكن خوفي من الموت، بل كان خوفي عليك، أحسستُ أنك لن تكون لي أبدًا.

وكأنما النسوة خارج الغرفة شعرن بي، مزقت صرخاتهن ستار الصمت المحلق فوق رأسي، فزعتُ وركضت إلى الخارج، رأيتهن وقد أثارهن قدوم زائرة جديدة، قبضتْ كل واحدة بكلتا يديها منديلاً وراحت تلوح به في الهواء في حركات إيقاعية مضبوطة من أعلى لأسفل.

نقلتُ قدمي بينهن بصعوبة وهن يتمايلن يمينًا ويسارًا ويرددن أصواتًا بدت لي أقرب إلى الغناء.

كان غناء رتيبًا مبحوحًا ـ يا يوسف ـ استجلب كل الحزن من أعماق روحي. كانت العجائز قد صبغن وجوههن وأيديهن وأذرعهن بلون أزرق، بدا لي المشهد خارجًا من الماضي السحيق، لم أتمالك نفسي من البكاء.

لم أكن أعرف أي شيء أبكي، هل أبكي المرأة التي لم أعرفها سوى في حكاياتك ولم أرها إلا جسدًا ضئيلاً فارقته الحياة، أم أبكي روحي التي مزقها يقينٌ بأنك – يا يوسف ـ لم تعد لي ولم أعد لك!

- **يوسف، يوسف، هل تسمعني! أكلمك. . . ، يوسف، يوسف هل تراني! أقف أمامك، على الأقل اسمح لي أن أقرأ ما تكتبه في كراستك الزرقاء تلك، ...... يجب أن أذهب، سوف أزورك مرة أخرى**

١٥ قوة الرقص

أسمعك يا أمل وأراك، لكنني صدقتُ كذبتي الكبرى ولم أعد قادرًا على مواَجهة الحقيقة، َسقطتُ في عالم الكذبة ولا طائل من وراء تسلق أسواره العالية، فهي ملساء ومنزلقة.

أسمعك، أسمع كل ترديدة نفس ترددينها، أسمع حتى صمتك ووجيب قلبكَ وأنت تراقبينني، أقول لك شيئًا آخر، أسمعُ لحزنك صوتًا، ولأسفك صوتًا، ولقلقك علي صوتًا، أسمع صوتًا لضعفك وانكسارك عندما يمر "منصور" في خاطرك فتنظرين في ساعتك وتتململين في جلستك أمام الغارق في صمته لا فعل يقوم به سوى الكتابة.

أسمع صرير قلمي وأنا أسجل كل كلمة تبوحين بها، اعذريني، أتدخل أحيانًا لتجميل الحقيقة، أمزجها بالكذب حتى أطيقها، لذلك أرفض في كل مرة طلبك بقراءة ما أكتب. لا تدخلي عالمي فأنتِ أجمل بكثير من هذا القبح الذي أحاول مواراته.

أقول لك شيئًا آخر؟ لقد صارت "تميمة الغول" كما صنعتها في حلمك، أنيسيَ في وحدتي، وعندما تغادرين أرددها مطوحًا جسديَ على إيقاعها فأشعر براحة تسري في كياني.

ذات ليلة بعد أن غادرتني، كان صوت حزنك وانكسارك صاخبًا، رحت أرقص مرددًا تميمتنا، لكنني بعد قليل تساءلت: **من أي شيء أستعيذ؟** سقطت التميمة يا أمل أمام قسوة السؤال، ورحت أرقص فارغًا من المعنى، من دون تميمة ولا إيقاع، ذبت في الرقص إلى أن طفت على سطح سمعي عبارة مولانا الأثيرة "لا يفنى في الله، من لم يعرف قوة الرقص"، تعرفينها، حكيتُ لك قصتي معها، منذ أن وقعت عيني عليها ذات تلصص في مكتبة أبي، كنت طفلاً غضًا، أحب التسلل ليلاً إلى مكتبته وأنهل من ركام دفاتره وأوراقه إلى أن تلوح تباشير الفجر فأعود إلى غرفتي وأنام على إيقاع تلاوته للقرآن قبيل خروجه لصلاة الفجر في المسجد القريب.

أذهلتني العبارة، لم أكن أعرف عن الرقص سوى ما نراه في أعراسنا من لهو، لم أجد فيه ما يعبئ هذه العبارةَ الفارقة.

ليلتها زارني مولانا في منامي مصحوبًا بطيور خضر. ولم يغادرني إلا بعد أن عرّفني على "عرنوس"، ذلك المحارب الذي عاد من حربه محملاً برسائل الجنود إلى ذويهم. وطلب مني كتابتها، تعرفينها، قرأتُها لكِ من قبل.

تعرفين! ضحكتْ أمي ملء شدقيها عندما قرأتُ عليها هذه القصة، قالت:

- **من أين لك المعرفة بالحرب والجنود وأنت لم تخدم في جيش أو تحارب في جبهة؟**

قلت لها بيقين أخافَها إنني منذور لحرب أشد من حروب الجيوش، ضحكتْ مرة أخرى وقالت:

- **وما دخل الرقص بالحرب، وما علاقة الله بهذه أو تلك!**

حملقتُ في وجهها إلى أن أخجلني ما التمع في عينيها من خجل، انحنيتُ على يدها قبلتها وتوجهت إلى التليفزيون الذي كانت تتابعه، أعدت رفع الصوت الذي كنت قد خفضته لأقرأ عليها القصة، توجهت إلى غرفتي أغلقت بابها خلفي، وظللت أبحث عن رقصتي التي أفنى بقوتها في الله.

عادت إلي عبارةُ مولانا التي أحبها يا أمل، وعندما تغادرين أستحضرها وأرقص ممعنًا في نزح الذكريات من خيالي، لكن الرقصة في كل مرة تسقط أمام السؤال، أسمع لسقوطها دويًا مفزعًا، كان السؤال الذي لازمني: **أي ذاكرة تريد أن تمحو، ذاكرتك عن «أمل» التي أضعتها، أم ذاكرتك عن «راحيل» التي أضاعتك؟**

هاربًا ظللت أرقص، لا أعرف كم ليلة، لم أعد أدرك من وجودي سوى حفيف قدمي الحافيتين على أرضية ملأتها شظايا زجاج مكسور، تتنازع رأسَي ذاكرتان، امرأتان، واحدة أضعتها، والأخرى أضاعتني.

أدرك الآن يا أمل أنني أرقص كما أردت لـ "عرنوس" أن يرقص، منتظرًا قلادة كالتي نالها ولم يطلبها يومًا أو يتمناها، ولا يفصلني عنها سوى شخصين: أنتِ، وأمي.

١٦ حكاية أم يوسف

- ***يوسف، يا بني، اسمعني***

منذ أن عدتَ إلي كسيراً من عرس أمل وأنا أنتظر أن تنهار، تبكي، تصرخ.

قلتُ بيني وبين نفسي، يوسف قوي، صامد، كعادته سوف يرمم جرحه ليعود كما كان وإن اكتسبت عيناه مزيداً من العمق ومسحة أخرى من الألم.

لم أكن أتوقع ما أراه...، ترقص!!
هل تعرف كم ليلة مرت وأنت منساب في رقصتك الغريبة هذه!
ليال طويلة يا ولدي، لا تشعر بنا ولا تسمعنا ولا ترانا.

قلتَ لي ذات ليلة بعد إلحاحي عليك بالسؤال عن تلك الرقصة التي تجعلك ذائباً، كأنما أنت معلق بين السماء والأرض، إنها رقصة مولانا جلال الدين الرومي الذي زارك في المنام وحمّلك الرسالة، قلتَ: يا أمي إنه الحزن يصنع العجائب.

تأملتُ خيراً بنطقك. وانتظرت أن تفيق، لكنك ظللت ترقص، ترقص كل مساء إلى أن تخور قواك ويهدك النوم فيأخذك عنوة فأجدك نائمًا على السرير أو على الأرض أو معلقًا بينهما كمن لم يستطع استكمال الطريق.

وعندما تصحو، تفزع إلى كراستك الزرقاء التي عدت بها من شرم الشيخ، وتكتب، فيطمئن قلبي وأقول الآن يعود إليه رشده، وحين أعود إليك بلقمة تقيم بها أودك أجدك وقد شرعت في رقصتك من جديد.

أجلس على حرف سريرك عسى أن تنتبه إلي، أقول الآن يوقفه الجوع بل العطش فأسقيه وأحدثه.

هل أروي لك الحلم الذي زارني عندما غفوتُ للمرة الأولى على سريرك، ثم صار رفيق ليالي الطوال التي رقدتها في سريرك أراقبك وأنت ترقص عساني أظفر بتلك اللحظة التي تستفيق فيها!

لم تكن تفعل، كان التعبُ يأخذك عنوة فأتلقاك في حضني وتظل نائمًا كالطفل إلى أن تستفيق فتبحث عن كراستك الزرقاء وتظل تكتب كما ترقص، قبل أن تشرع في الذوبان.

- ***يوسف، يا حبيبي، هل تسمعني! أكلمك، يا بني، يوسف، تراني! أنا بقربك دائمًا، إلى جوارك. على الأقل طمئني إن كنت تسمعني، ألست جائعًا؟ هل تكفيك رشفات الماء التي أبلل بها شفتيك حين تسقط إعياء بين يدي؟! يوسف، يوسف.***

١٧ حلم أم يوسف

رأيتك بجواري، يا يوسف ـ تتشبث أصابعك النحيلة بكفي، لا أعرف من منّا يقود خطى الآخر، أظنك أنت من كنت تقود خطاي المتعثرة على طريق ترابي طويل، تحده من الجانبين نخلات، رؤوسها حُبلى ببلح تكاد حباتُه تضيء من فرط استوائها.

ترمق عيناي الثمرَ الناضج باشتهاء، تدرك ـيا يوسفـ لا أعرف كيف، ما يدور بخلدي، تمتد يدك فتطول أعلى النخلات، طال عودها وانحنى، وتعود إلي بجفنة تتراقص فيها بلحاتٌ حمراء ممتدة، وأخرى صفراء مكتنزة، ألتقطُ من كفك الممدودة حبات أذوق عسلها، يحملني ريقُ العسل إلى بيت أبي المحروس بالنخلات، هناك في أقصى الصعيد.

أرى (حسين) أباك، وقد أضاء وجهه في لفة شاله الأبيض، وكشفت ابتسامتُه عن أسنان بيضاء دقيقة متراصة تلوذ إحداها بالأخرى.

رأيتُ أبي يقوم من مجلسه على عتبة الدار، يمتد ظلُّه بجواره طويلاً كرمح، تهلل وجهه استبشارًا بمرأى «حسين» الذي يحبه.

أرى نفسي بنتًا غلبها الحياء فتوارت خلف شيش الشباك، رحت أراقبهما بقلب ذاهل وعينين محتارتين بين الرجاء والوجل، يبش أبي ويفتح ذراعيه لاستقبال «حسين» فيرقص قلبي، أرى ذراعي أبي المفرودتين صليبًا، وأرى وجه حسين هلالاً، يتعانقان، أكتم فرحتي وأتعوذ بالعدرا من شر يترصد بي.

تمد يدك، ألتقط من كفك ـيا يوسفـ حبّة أخرى وأقضم جسدها المكتنز فتنز روحُ البلح بين شفتي عسلاً رائقًا أشعر به يسري في عروقي فيشتد عودي كأنما لم تحنه السنون، أنطلق بخطوات خفيفة محلقة، بالكاد تثير غبار الطريق، تدركني ـيا يوسفـ بصعوبة وما زالت كفك المترعة بالتمر ممتدة إلي، أرنو إليك، فأرى «حسين» بشاله الكشمير وجلبابه الفضفاض، يرقص على تراب الطريق كما رقص ليلة عرسنا، عيناه واسعتان مسكونتان بالفرح.

أعود إليه/ إليك محمولة على أجنحة لا أراها، أشعر برفيفها في كل بقعة من جسدي، أقف على حد دائرته بينما هو في الرقص ذائب، يرقص كما ينبغي لرجل سعيد أن يرقص، أخلع عني خجلي وأُسقط من عيني نظرات الناس وخشيتي من أحاديثهم، أُلقي بنفسي وسط دائرته كما تمنيت أن أفعل يوم عرسنا، أرقص معه كما ينبغي لأنثى مبتهجة أن ترقص، تتسع الدائرة وليس سوانا، يرقص كل منا على إيقاع الآخر جاذبًا ومجذوبًا، ذائبًا ومذيبًا، تنحلّ خصلات شعري، أسوده شلالات تنعكس عليها أشعة الشمس رائقة ودافئة، ينحل شاله متجاوبًا فينير سمارُ

وجهه في عتمة الشعر حالك السواد، أرقص حوله ويرقص حولي، كلانا مركز لدائرة الآخر، تخرج -يا يوسف- من مركز الدائرة طفلاً يلاعب ظلينا المتراقصين، وتتراكض خلف الظلال.

علمك أبوك رقصة العصا، وعلمك الرقص بالحصان، أنت الوحيد الذي سمح له أن يمتطي "حسناء"، فرس أبيك الشقراء، كان يقول إنها سوف تعرف دمه فيك وتطيع، كانت حرونًا لا يمسها فارس سواه، ضحك وبشّ وهو يراك تطوعها كما علمك لتنساب راقصة على إيقاع المزمار وقرع الطبل الحنون، تذكر كلماته! كان يقول لك (إذا أحست الفرسُ بك ثقيلاً، عاندتك، وإذا أحستك خفيفًا أسقطتك، كن فارسًا بين الغياب والحضور فتحتار فيك وتجود لك بالرقص)، لست غريبًا يا يوسف، كان حسين يقول: الرقص، جسد معلّق بين الحضور والغياب، وروح يراودها الحضور، أنت ابنه وحامل دمه . . . ودمي.

لكنني -في الحلم- أصحو يا يوسف، أجدف بذراعي في الهواء أمامي محاولة التشبث بكفك التي لا أراها، أتلفت حولي فزعة، أجدني هناك في المقهى الذي اعتدتَ أن تجلس فيه مع رفاقك، تُخجلني نظرات رجال اكتظ بهم المقهى، ولا أراك، ألملم خجلي وجسدي وأنهض ضئيلة أجرجر ساقي وأخرج لأجلس قرب ضريح «الشيخ ضباب» المطلّ بقبته على نيل المدينة الذي لا يُفلح -على اتساعه- في بلّ ريقي الذي أشعر به جافًا كأنني صمت دهرًا عن الكلام.

يوسف، هل تسمعني! أحدثك، يوسف، هل تراني؟ أنا هنا قربك، أنام وأصحو على سريرك، وتغفو وتفيق في حضني.

بالأمس، صحوتُ على حلم جديد، رأيتُ مراكب الفرنساوية تقطع مياه النيل وتقترب من حدود المدينة، وتباشيرُ الفجر قد أخذت في انتزاع العتمة من قبضة الليل لتشتتها في كتل معتمة سرعان ما حلت محلها أغباش ضوء الصبح الوليد.

كنت أقف على جسر النيل وسط آلاف امتزج ضجيجهم بضجيج الناس في شوارع المدينة، كان الخوف من اقتراب الفرنساوية قد بلغ حدوده مهدداً بتكرار ما بلغهم من أخبار عما ارتكبه جنودُهم من فظائع في أهل المدن والقرى التي مروا بها، كيف انتهكوا حرمات بيوتها واغتصبوا نساءها، وسرقوا خيراتها.

رأيت أثرياء المدينة وهم يجمعون ما خفّ حمله وغلا ثمنه ويغادرون وأهلُهم، يطلبون الأمان في مدن أخرى لا يقطعها النيل الذي تحول إلى لعنة لمجاوريه، بينما لاذ الفقراء بالمزارع الواقعة على أطراف المدينة.

وإذا بالشيخ ضباب ـ وقد تسلل من بين الجموع الغفيرة التي تعالت صيحاتها ـ اختار له مكاناً على الشاطئ، مسحه بمكنسة من خوص طالما حملها في يديه، كوّم التراب على جنب، مستعيناً بعصاه التي لم تكن تفارقه.

رسم دائرة على مساحة الأرض المكنوسة وخطا بداخلها، أفرغ جواله وفرده، رفع الأذان وأقام الصلاة، صلى ركعتين مستقبلاً النهر ولم يصل وراءه أحد سواي.

سلّم ورسمتُ الصليب على صدري، غرس العصا في منتصف دائرته فانغرست في الأرض لا تميل، ضرب الجوال خيمة غطته بعد أن تكور كجنين.

شغلتني عن مراقبته ـللحظاتـ صيحاتُ نسوة ركضن من بعيد يحذرن من قرب وصول سفن الفرنساوية، كانت إحداهن تبحث عن ابنها الضائع، في لهفة راحت تركض دافعة حشود الرجال والنساء، تبحث بين السيقان التي التصقت بالأرض بعد أن عجز أصحابها عن اتخاذ القرار بالفرار مع الفارين.

كانت الأم تنادي ابنها بصوت تتقطع له نياط القلوب: يوسف . . . يوسف.

شعرت بقلبي يحترق عندما سمعت اسمك، التفت نحو خيمة المتكور على نفسه كجنين، رأيت بعيني دخانًا أبيض يتصاعد من تحت الخيمة، كان الدخان كثيفًا، مضى ينتشر سريعًا كالريح، سرعان ما وصل دخان الشيخ إلى شاطئ النيل، تجاوز الناسَ والماءَ وأرخى غلالة كثيفة حجبت كل شيء.

مثلي مثل الناس، لم أعد أرى سوى بياض كثيف كالحليب، ساد صمت غليظ حين أمسك الخوفُ بأنفاس البشر الواقفين على حافة الماء،

وعلتْ أصوات مراكب الفرنساوية وارتفع ضجيج جنودهم وهم يصرخون بلسان لم أفهمه، راح الصوت يخفت رويداً رويداً، وراحت أنفاس الناس تتصاعد كأنما ارتفعت قبضة كانت تمسك بخناقهم، وسرعان ما بدأ الضباب يرتفع خفيفًا في الفضاء محمولاً بنسائم تحركت فجأة بعد ركود كانت له لزوجة كنسغ الصبار.

انقشع الضبابُ فرأيتُ الناسَ يكتمون فرحة سرعان ما انقلبت إلى تهليلات وتكبيرات مكبوتة عندما رأوا مراكب الفرنساوية التي سمعوا أنها تحمل أسلحة قادرة على اصطياد الذبابة في ظلمة الليل الحالك، وهي تبتعد دون أن تنتبه إلى المدينة.

اصطك جسدي على ارتفاع تهليل الرجال وتكبيرهم، وعلى زغردة النساء عندما تأكد للجميع أن مراكب الفرنساوية ابتعدت ولم يعد أحد قادراً على رؤيتها، حتى من اشتهروا بحدة البصر من أهل المدينة.

ركضتُ مع الناس إلى خيمة الشيخ ضباب، دققت النظر مع المدققين الذين رفعوا الخيمة عن عصا الشيخ القديمة، لتندلق الدهشة من عيون الجميع حين لم يجدوا أسفلها إلا العصا وجوالاً أفرغت محتوياته، وبقايا دخان لا يعرف أحد من أين مبتدأه ولا كيفَ انتهى.

تبادل الجميع نظرات تجمع بين الدهشة والسرور، وأخذ الجمع في التفرق، بينما كانت المرأة المحزونة تركض بين الناس وتصرخ: يوسف... يوسف. لقد كنت أنا المرأة يا يوسف.

كنتُ، في حياة أبيك ـ حسين ـ أصحو من نومي أحيانًا مفزوعة، فيصحو من نومه، يمسح خوفي بضحكته المجلجلة في عز الصمت، ويقول: ***ها أنت تفعلينها ثانية.***

ويضحكُ، أحكي له عن أحلامي التي أخرج فيها من كنيسة وأدخل مسجدًا فيطردني الناس، وحين أحتمي بالكنيسة لا أنجح في فتح الباب.

كانت ضحكة أبيك كفيلة بأن تعيدني إلى النوم وقد تشبثت بطرف ثيابه، وهو يقول: ***رب هنا رب هناك.***

عندما أفقتُ على هذا الحلم، تلفت حولي، غاب «حسين» ولا أحد يمكنه أن يسكّن وحشتي سواه، وجدتك منهمكًا تكتب، تذكرت قصتك التي قرأتها لي ـ عن الشيخ ضباب، سامحني يا يوسف لم أعرك أذنًا مصغية، كنت أنتظر أن تنتهي من قصتك وبالي مشغول.

أما أنا وقد اخترت نصيبي واقترنت بحسين، فما ذنبك أنت لكي تحتار بيني وبينه؟ يؤرقني هذا السؤال يا يوسف كلما رأيتك ذاهلاً أو محتارًا.

أقول لك سراً!

عندما استيقظتُ على هذا الحلم ذرفت دموعًا غزيرة، هبطت من فراشي ودسست قدمي في فردتي حذائي، وضعت طرحتي البيضاء على رأسي، غسلت وجهي، شيء ما دفعني ووجدتني أتوضأ وضوء أبيك، في هدوء فتحت باب المنزل، هبطتُ درجات سلم البيت الطويل في حذر،

واستلمت الشارع، لم أدر إلا وأنا قاصدة ضريح الشيخ ضباب الذي احتفظ ـ ببركة صاحبه ـ بمساحة معتبرة على ضفة النيل رغم هجمة الطوب الأحمر التي لم ترحم حقلاً أو نخلة وجعلت المتر بآلاف الجنيهات وحولت الفلاحين إلى أصحاب مال وأعمال.

هناك، قضيتُ يومي جالسة أدعو الله أن يعفو عنك، لم أشغل بالي أي إله أدعو، إلهي أم إله «حسين» فأنت ابني وابنه، لم تكف شفتاي عن الابتهال يا يوسف إلا عندما تصدرت شمسُ الله صفحةَ سمائه.

حزنُك على أمل يقتلك، تعرف! منذ أن دخل «منصور» بها، وهو يسمع من أهل الحارة أشدَّ اللوم، يقولون إنه اشتراها بنقوده، وهي المنذورة ليوسف منذ نعومة أظافرها، يلومون عليه، يعرف أنها منذورة لك منذ أن رأت الدنيا على يديك، كنت صبيًا جميلاً يا «يوسف» لم تبلغ الخامسة بعد، حين احتبستْ أمل في رحم أمها وأبتْ استقبالَ الدنيا بوجهها، صرخت الداية التي خشيت على حياة الأم ووليدها، طلبت لفك العقدة أن يستقبل الوليدة صبي طاهر لم يبلغ الحلم بعد، وهكذا مسّدتَ بكفك الرقيقة بطنَ المرأة المسكين التي رأتَ الموتَ بعينيها، فانزلقتْ أمل بين يديك، وتعالت الزغاريد، الغريب أنك يا ولدي لم تجفل ولم تفزع، بل التقطتَ قطعةَ اللحم الحمراء ورفعتها بين ذراعيك وقبلت ما بين عينيها، ورفعت عينيك إلى عيني أنا الواقفة إلى جوارك تلجمني الدهشة، وقلت لي:

- *هل هي لي؟*

لم أجبك أنا يا يوسف، بل جاءتك الإجابة من أمها التي كانت روحها ترفرف بين يديك، ضحكتْ وقالت:

- *هي لك يا يوسف، انتبه عليها.*

رفرفتْ شفتاك بضحكة تشبه الفراشة وقلتَ:

- *أسميها أمل.*

عقدت الدهشةُ ألسنتنا جميعًا، وقالت لك أمُّها:

- *والله ما يردك مؤمن.*

وارتفعت زغاريد النساء ودخل أبوها الذي لم يطق صبرًا، فوجد البنتَ بين يديك، وأمها تقول له:

- *مبارك عليك أمل، خذها من يد يوسف.*

منصور يعرف هذا، ويذكّره الناس، يقولون له إن لم يكن بسبب ذلك النذر، فكرامةً للحب الذي جمعهما معًا لسنين طويلة، جعلت منهما بطلي قصة تناقلتها ألسنة الناس في الحي وفي الأحياء المجاورة.

يقولون ـ يا يوسف ـ إن منصور لم يختر «أمل» بسبب جمالها، وإن كانت الأجمل بين بنات الحي، بل لأنه كان يرى فيك خصمًا له ينازعه مكانته بين سكان المنطقة الذين يعملون لفلوسه وذهبه ألف حساب، إلا أنهم ـ عندما يجدُّ الجد ـ لا يجدون أمامهم سوى عقل يوسف الرزين،

القارئ، بكلماته يصنع لمشكلاتهم حلاً، وبهدوئه يمنحهم طمأنينة من قلقهم. فلا تُشمّتهم الآن فيك.

أعرف أن حزنك ذابحك، لكن أقول لك شيئًا ربما يسليك في تلك العزلة التي اخترتها، إن كنت تسمعني، في صباحية ذاك الحلم- عندما التجأتُ إلى جوار الشيخ ضباب، قابلتُ منصور.

نعم، في البداية لم أصدق أذني عندما سمعت صوته بين الرجال الجالسين في الغرزة قرب الضريح الذي استغله صاحب المقهى المجاور، وعرَّش المساحة الواقعة بينه وبين أقرب المباني، فحولها إلى مكمن بعيد عن العيون لأصحاب المزاج، فكيف لعريس لم تمر على زواجه أيام أن يسهر هنا بين رفاقه؟!

هو من انتبه إلى جلستي هناك، كنت جالسة في ضوء الشيخ ضباب عندما انتبهتُ إلى أن عروق يدي تظهر زرقاء جلية في ظاهر كفي، قلت في نفسي ربما يكون ذلك بفعل الضوء المنعكس على الجدار الأبيض، لكني انتبهت إلى أنها تنتفض نتيجة تشبثي بقسوة بقضبان الحديد في شباك الضريح الصغير. بينما كنت أراقبُ أطرافَ أصّابعي التي ازرقت من شدة التشبث، شعرتُ بوخزة ألم ثم رأيته وسط شلته جالسين هناك، تيقنت أنه سمعني وأنا أهمس بصوت -جهدت أن أجعله خفيضًا - أناجي رب صاحب المقام، وأستجير به أن يمنح بركة عبده ضباب لابني الراقص حتى الغياب، هكذا قلتُ عنك، حتى يمر الحزن بقلبك من دون أن يصيبك كما مر الفرنساوية بالمدينة وقد عميت أبصارهم.

كنت واعية رغم أن العَبرة كثيرًا ما كانت تأخذني فيرتفع صوتي منهنهًا ببعض الكلمات، لا بد وأن آذان الجالسين هناك في عتمة دخانهم الأزرق التقطتها، خشيت أن يحولوك إلى قفشات يُحلّون بها خاتمة سهرتهم التي أوشكت على الانتهاء مع طلوع ضوء النهار.

ازداد قلقي عليك يا يوسف، سوف يختتمون جلستهم بحكاية عنك ينسجونها بنشوة صباح الخير، لتتطاير وتشيع وتضاف إلى ما يردده الناس.

لمحتُ «منصور» بينهم، أنا التي ما كرهت يومًا إنسيًا، كرهت هذا الرجل، ولكن، الحقَ أقول لك، لم يدم شعوري بكراهيته طويلاً؛ فسرعان ما انقلب إلى شفقة على هذا الكائن المسكين، وستعرف الآن لماذا.

أعرف أنك مثلي لا تعرف الكراهيةُ طريقًا إلى قلبك.

ما إن اطمأن المسكين إلى رحيل رفاقه، حتى قصدني في جلستي قرب الضريح. في البداية سأل إن كان بإمكانه أن يقدم لي أي مساعدة، ولما تجاهلته، انحنى بجسده الثقيل أمامي وقال لي:

- *أجد نفسي - وأنا المستغني بما أملك - ضعيفًا أمامك يا أم يوسف.*

ثم تلفتَ حوله خشية أن يسمعه صبيان القهوة الذين بدأوا في الظهور لتجهيز المكان لاستقبال الزبائن، وباح لي بسره، قال لي:

- ***إن مصابك في يوسف قد طالني.***

وسألني أن أدعو له، قال:

- ***منذ تحدث الناس عن رقصة يوسف الغريبة تلك، فقدتُ سيطرتي على أمل.***

وبحذر همس في أذني:

- ***تعرفين ما ترغبه النساء يا أم يوسف، تعرفين بلا شك!***

وقال:

- ***أمل التي ظلت تدّعي الرضا، تحولت إلى كائن آخر منذ أن ذاع سر رقصة يوسف، كائن يُشعرني بعجزي، ذلك العجز الذي فشلتُ كل ثروتي في أن تجد له علاجًا.***

ما زالت كلماته تطفو على بحيرة سمعي يا يوسف، قال وهو يجتهد في إحكام توازن جسده الضخم، ليقوم من انحناءته أمامي:

- ***ادعي لي يا أم يوسف، ادعي لي ولا تدعي علي.***

هكذا همس في إلحاح، وقال لي قبل أن يجرجر قدميه عائدًا إلى بيته أنه يتسلل إلى سريره ولا يغادره قبل أن ترتفع الشمسُ في منتصف السماء، ليقضي بقية يومه أمام باب دكانته باذلاً كل جهده لكي لا يقع بصره على ضلفتي شباك غرفتك المحطمتين المعلقتين كشاهد يذكره بك، أنت الذي أراد أن يقهرك فقهر نفسه.

١٨ تجربة موت

يرقص الناس على الإيقاع، بينما كنت أرقص باحثًا عنه، ثمة ضجيج غريب يحتل مساحة السمع يشوش علي كل محاولاتي، رغم ذلك كنت أحيانًا أنجح في التقاطه ضئيلاً خافتًا واهنًا، إلا أنه كاف لأضبط رقصتي عليه، فأرقص حتى أشعر أنني قادر على الطيران، ثم يتوقف فجأة كأنما عاد إلى عوالمه من حيث أتى، يطبق على المكان صمتٌ، يسقط كحد سكين، يقطع اتصال كل صوت بأذني، فأنهارُ كتلة صماء على أرضية الغرفة، أو عند آخر نقطة من طاقتي التي أوجهها نحو السرير.

في كل مرة أرى ضوءًا مبهرًا يضيء لبرهة ضئيلة جدًا، ثم تسود عتمة وسكون، يتهيأ لي أنها لحظة الموت، أستسلم منتشيًا بقدومه، فتنتشلني من لحظة استسلامي فكرة حيرتني دائمًا، هل تموت الروح أم فقط تغادر الجسد حين يفسد أو يشف! وإلى أين تغادر، هل تظل معلقة يعذبها ما كان يعذبها طوال فترة مرافقتها له، أي عذاب هذا إذن، أي جحيم!

خوفي من موت يشبه تلك الصورة، يعيدني في كل مرة إلى الحياة، فأتشبث بقطرات ماء تبلل بها أمي شفتي اليابستين وتبعث في أطرافي المجهدة حياة جديدة كافية لمواصلة الرقص.

حرّكت أطراف أصابعي، اطمأننت عندما شعرت بقبضتي تتحرك، مسحت أرض الغرفة، ابتسمت عندما وخزتني شظايا زجاج.

الخوف من الموت يبطل مفعول الحشيش، غمرتني السعادة عندما شعرت بدمي يسيل، استقبلت بفرح جيوش الألم التي غزت جسدي. أدخلتني يد الألم في التجربة.

- ***فلتفلسف الأمرَ كعادتك يا يوسف.***

قلت لنفسي:

- ***أي ألم أشد، هذا الذي يمرغك الآن كالحيوان في أرض غرفتك، أم ذاك الذي ينهش صدرك كلما تذكرت أنك زرعت بذرة قد تنبت من دمك ولحمك في رحم "راحيل"!***

أدخلني السؤال إلى الجحيم الذي ظننت أنه ينجيني منه، اشتعلت في أركان روحي نار لم أعرفها من قبل، تمنيت لو أنجح في إشعال سيجارة أخرى من نبتتها الفاخرة، تلك الحشيشة التي دفعتُ فيها كل ما تركته لي «راحيل» تحت وسادتي.

كالمومس، كان شعوري وأنا أفيق لأجد ثمن جسدي تحت وسادتي ولا أثر للرائعة التي روعتني ورحلت.

١٩ لعبة الظلال الأخيرة

لم يعرف إن كان ذلك الصوت العظيم الذي يسمعه، صوت ضحكته المجلجلة على تلك المومس التي كانها، أم صوت صراخه المنهار، عادت عيناه إلى جدار ظلاله تبحثان عن مخرج من هذا البؤس المقيم، اختبأت أمه كلمح البصر بين ظلال صلبانها المتقاطعة، قفزت غزالة أمل النافرة وراء سياج المسجد، في إثرها ركضت (راحيل) كلبؤة ماهرة، اصطفقت أشجارُ اللوحة وانتثرت أوراق الكتب الصفراء، وانهمرت أصباغ المداد الأزرق والأخضر والأسود، همست (راحيل):

- ***أكون أسعد امرأة في الكون لو جاءت ابنتنا تحمل عينيك الواسعتين الحالمتين، وتنعم ببشرة ملساء مثل بشرتك، ليست بالسوداء ولا بالبيضاء، سمراء مشربة بحمرة كالورد، وتتمتع بأنامل تشبه أناملك الدقيقة الطويلة التي تليق بعازفة قيثارة فرعونية هاربة من برديات المصريين الملونة بالأزرق الملكي والأحمر الدموي والذهبي الأسطوري، لو أن شعرها يكون مثل شعرك، أسود، لا هو بالناعم ولا بالخشن.***

استنفره همسُها الحميم، تنبهت غرائزه، اندفع بما تبقى من طاقته محاولاً الوصول إلى نبتته المخدرة، قفزت اللبؤة من لوحة الظلال، فتسمر الواقف مرتجفًا، أرهفَ بكل كيانه:

- *آه يا يوسف، أريدها امرأة رسولة، تجمع في دمها الديانات الإبراهيمية الثلاث، أريدها أنثى تأخذ من تربة أفريقيا خصوبتها، ومن رمال آسيا نعومتها، فتكون لقاء الطين بالرمل، قلتَ لي، يا يوسف، عندما كنتَ لي، إن أجساد الرجال هي الرمال، بينما الطين الرخو أجساد النساء.*

ارتجف رجفة حركت سواكن الآلام في جسده الذي أثخنته الجراح، معانداً انتصب وسط غرفته، أشهرَ إصبعه في وجه اللبؤة التي فزعت وعادت تركض على حائطه، اجتهد ليستحضر صوته الذي لم يتمكن من استحضاره هناك ـعندما همّ بها وهمت بهـ صرخ بعزيمة تمنى لو أنها كانت معه في ذاك الوقت، فتح فمه لينطق، لم يسمع سوى كلمات كان بالفعل قد همس بها لها عندما كانت له، وكتبها في كراسته الزرقاء، لا يعرف لماذا انهمرت على لسانه الآن:

- *عندما عدنا من هناك، حيث الصحراء شاسعة، والرمال مشعةُ، حينما قطعنا المسافة عدواً، ثم هرولةً حين راودنا التعبُ، ثم مشيًا حين تعبنا، وحبواً حين هدّنا العناء، رأينا أضواء المدينة على امتداد البصر، هللنا، رفعنا أيدينا نحو السماء وعلّقنا عيوننا بالضوء، وأجهشنا بالبكاء، كانت دموعنا مالحة كأجسادنا، لا*

ندري كم من الوقت أضعنا، لكننا بعد ذلك أدركنا أن زماناً طويلاً، طويلاً بحق، مر على مدينتنا؛ لأن الحزن الذي رأيناه معششًا فوق البيوت، متآلفًا مع سحنات الوجوه، هذا الحزن الغامق كطلحب، لا ينبت هكذا فجأة بين يوم وليلة. إذن، أين ضاعت كل هذه السنين؟

تلوّت راحيل على حائط الظلال، أحنت رقبتها تجاهه فأيقظت فيه رغبته التي ظل طويلاً ينكر أنها سبب سقوطه في بئرها السحيق، طالعته باهتمام، وهمست:

- *سؤالك مهم، ولكن ألا ترى أن البحث عن إجابة سيُضيع المزيد من السنين، لتعود فتسأل أين ضاعت، وتعود فتبحث ... و... دعك من هذا، وتعال إلى سر الحياة.*

انتفض مأخوذاً بتداعيات الذكرى، المشهد يكرر ذاته، استجمع شجاعته وأراد أن يتلو تميمة الغول كما لقنتها له أمل من حلمها، فتح شفتيه فلم تخرج سوى كلماته التي كتبها في كراسته الزرقاء:

- *يقولون إن للصحراء سراً، سحراً دفينا، يجعل المرء لا يدرك مرور الزمن، فسَّروا ذلك باختلاف أمزجة الرمال، وذلك الوهج الذي ينشأ عن تصارع ذراتها فيُغشي عينَ الزمن ويجعله يمر على حدودها ولا يقطعها... وهكذا... لا يدرك أهلُ الصحراء أن الزمان*

يدور وأن الناس من حولهم يروحون ويجيئون كما إبرة الحائك . . . يصنعون . . . يفعلون . . . يموتون .

صرخ فيها عندما رآها تنصت في ضجر واضح :

- *هل تصدقين أنتِ ذلك؟*

باغتته وكأنما تستعجل شيئًا ما :

- *أصدقه ، أصدق .*

هبطت اللبؤة من عتمة الظلال ، في شراسة حامت حول جسد المنتصب فارعًا رغم نحوله الواضح ، تشممته وتمسحت بساقيه ، تجسدت أنثى ، قالت :

- *أصدق ، سمعتُ كذلك أن زنود رجال الصحراء قوية ، عاصرة ، وأن أجسادهم ناحلة كرماحهم ، مرنة ، ينسابون كما تنساب الريح ، ويلجون كما يلج وتدُ الخيمة حِضنَ الرمال .*

راحت تدور حول نفسها راقصة كفراشة ، كان يراها وهي ترقص ، ويسمعها تردد :

- *آه ، كل هذا الثبات ، وكل هذه الحركة . . . أليس جميلاً ، أن يأتي هكذا ، منساباً كريح ، ضارباً كوتد . . . آه ، رائع .*

صامتًا ما زال ، لكنه لا يخشى على صمته ، بل على صموده ، تحاصره الدهشة ، يشعر أنه كالمجذوب سوف يسقط في فخها مرة أخرى ،

يوقن وكأنه قد صُنع خصيصًا ليسقط في هذا الفخ مرات ومرات، يراها بينما تتهيأ له بفرح غريزي واضح، تُراجع مظهرها وتتأكد من أماكن الفورة في جسدها الفاره، كأنما هي واثقة من سقوطه الوشيك، مررت كفيها على جسدها وهي تهمهم مرددة المقطع الأخير :

- *جميلٌ أن يأتي هكذا، منسابًا كريح، ضاربًا كوتد، ممتداً كرمح. . . أليس جميلاً يا يوسف!*

جاهدًا راح يوسف يقطع صمته بهمهمة، كان يردد تميمة الغول التي لقنتها له أمل، لكنه لم يستطع أن يحول البصر عنها، لم يستطع إلا أن يراقب تحركاتها وجسدها الفاره، يواصل ترديد تميمة الغول كأنما يتحصن بها :

ياستار، ياستار

نط الغول على باب الدار

لف ودار في عيونه شرار

قمنا عليه كويناه بالنار

شافنا كتار، فك وطار

يا ستار، ياستار

نط الغول على باب الدار

توقف فجأة وأشهر سبابته في وجهها، طعنها بسؤال لا يعرف كيف تكونت كلماته، انسابت وحسب من ذاكرته إلى لسانه، ماء ينساب من نبع فاض بغزارة ما فيه :

- *حين يموت الناس، تتحلل أجسادهم وتصير تراباً. . . فمن أين تأتي الرمال؟*

لم تكترث اللبؤة بطعنة من كلمات، راحت تدور حول عوده المنتصب من دون أن تمسه، وتحاذر أن يمسها، راحت تردد على مسامعه كلمات تدعي أنه قالها لها، هناك:

- *قلت لي إن أجساد الرجال هي الرمال، صلبة كما هم، قاسية كعيدانهم، عاصفة في غضبها، تمامًا كما يكونون، حانية في تشكلاتها وهي تتوغل في تضاريس الأرض، تماماً كعاشق يتمدد بجفاف عوده في لدونة معشوقته، بينما الطين الرخو أجساد النساء. سألتَني ليلتها يا يوسف "ألا تجدين الرمال تحن إلى الطين بينما هناك تنتهي، كالفراشة تندفع نحو الضوء؟" سألتني ليلتها وأسألك الآن: ألستَ تجد الرمال تندفع محلقةً كما الفراشات لتسقط على الطين شاربةً من مائه، فتتز كأنما الذكورةُ ترتوي بعد سنين عجاف؟*

تعلقت عيناه بطيفها المتراقص حوله، كانت ـكلما مد يديه ليلمسهاـ تناءت ودارت دورة واسعة بعيدة، ثم عادت لترقص بالقرب منه، يكاد جسدها يضيء، صرخ يوسف:

- *من منا الرمل ومن الطين؟*

استكملت رقصتها في حضرته، كالمشنوق على جذع نخلتها كان، يسمعها بكل حواسه، قالت:

- *وكأني بالطين يصرخ مستعطفًا الرمال، ألا هبي وثوري.*

بادرت نحوه كأنما ستحتضنه، متشبثًا بقدميه في الأرض، نخلة صامدة قاوم رغبته الجارفة في أن يحتضنها، راحت تواصل الدوران حوله في شغف، قرأت عليه قصيدته، قصيدتها، لم يعد يعرف من فكّر ومن كتب:

- *وغطي سوادي بأصفركَ المشعِّ، وذهبكَ البراق، خذ عن جسدي تلك الرطوبة الخانقة، جففني بسياطك اللاهبة... تشربني وامنحني وجوداً آخر حين تغيب ذراتك الناعمة برقة بين طيّات طينتي... فينشأ عالم جديد... وليد جديد.*

يتلوى يوسف كأن يدًا امتدت إلى قلبه فاعتصرته، يستجير بشعره، يقرأ مستحضرًا كراسته الزرقاء:

- *فمن ذا لهذا الوليد يظلل الآن قلبه، ليدخل في حومة الظل والارتواء؟*

مد يديه ليمسك بها، أرادها أن تكف عن الدوران في فلكه، شعر بأنه على حافة الجنون، تخبطتْ يداه في الفراغ، يراها ولا يمكنه أن يمسك بها، مستجمعًا شجاعته، صرخ في طيفها المخاتل:

- *في زمن الجفاف يتشقق الطين وينشق، يفتح أبوابه على مصاريعها، إنه النداء، نداء الطبيعة للطبيعة، التي سرعان ما تبث الرغبة في جسد الرمل فيهتاج، يتوسل بالرياح لكي تنقله إلى الطين ليتغلغل في طيات جفافه، يبعث ذراته في آخر ما يتسنى من جسد المعشوقة طين الأرض، يعتنقان وينتظران المددَ، الغيثَ... المدد... الغيث... المدد... الغوث.*

رفع رأسه ناحية السماء، وراح يردد:

- *المدد... الغوث.*

يضغط مخارج الحروف وكأنما يناجي من اعتاد على البذل ثم انقطع:

- *فمتى يحن قلبك، يا صاحبة الغيم... وتنهمرين؟*

تكورت (راحيل) في شكل جنيني، سقطت ككتلة صماء بقرب قدمي يوسف الذي ما زال مُعلقًا نظره في السماء، بعد أن أنهى جملته الأخيرة، صامداً كان ومشدوداً كَوتر.

بهدوء أفعى، رفع الجنينُ الساقطُ قرب ساقي المنتصب كنخلة بصرَه، راقبَ النخلة في انتصابها من زاوية سفلية، بعينيها مسحت الجسد كاملاً قبل أن تصل إلي عينيه، كان حديثها خارجًا من تلك الزاوية:

- *أيتها الرمال الحارّة الساخنة، أيتها اللافحة كالحريق، ألست مشتاقة إلى لحظة ارتواء؟ ألست ظمآنةً فترتوين من نبعي الرقراق؟ الغيمة هنا، والطين هنا... يتشقَق من شوق.*

بانفعال مفاجئ تحركت بعيداً عن يوسف، راحت ترقص كالهائمة، كالتائهة تبحث عن علامة تدلها على الطريق، رددتْ في انكسار:

- *آه، ما أغبى تلك اللحظات، حين ننسى أننا من الطين وإليه نعود، فنسمو بأجسادنا، لا بل نتسامى فلا نعود نفرّق بين صرخات الجسد العطشى وأنات الروح في مضايق التيه.*

عادت إلى يوسف، تواجهه وتنظر مباشرة في عينيه، تصرخ:

- *من قال إن الرمل روح والطين جسد؟*

يدرك يوسف أنه لن يستطيع مقاومة تلك العينين، يشيح بوجهه في هدوء، فتزداد حدتها ولكن تخالطها نبرة يشوبها التوسل:

- *من قال إن الغيمة هناك، وليست هنا؟*

يطغى صمت على المكان، يقف يوسف جامداً إلى أن تفقد الأملَ في إجابة منه، تنقلب إلى لبؤة وتركض إلى حائط الظلال، يلمحها الواقف ممعنًا في صموده وهي تتلوى وتقلب أشكالها، يراها تنسلّ من عتمة كالضوء، وسرعان ما تنتصب أمامه في زي جديد، تتوسّل:

- *اهبط الآن، اهبط الآن أيها المتسامي، اهبط، وأعد الروح إلى طينتها الأولى، ضع روحك في جسدي، ضع.*

ينجح يوسف في مقاومة نفسه، يستدير ويعطيها ظهره، يشعر بتعب كأنما أدار جبلاً من أرضه، بهدوء يخفي بركانًا، يستكمل حديثه السابق كأنما لم يسمعها:

- *يقولون أيضاً إن الريح لما هبّت على أهل الصحراء وغادرتهم، حملت منهم ذرات رمل، وألقت بها في رحلتها في عين ماء لقوم ليسوا من أهلها، لما شربوا منها صارت الرمال تزور رجالهم في أحلامهم وتغريهم بأشعتها المتوهجة الصفراء فيرحلون، وتراود فتياتهم عن أنفسهن وتقطع عليهن أحلام يقظتهن بالفارس المنتظر، بل كانت ترفع عنهن-كما يقولون- أغطيتهن وهن نيام وتجول كما العاشق في حنايا أجسادهن، فيصحون على اندلاع النار في تويجات الزهور، وعلى اختمار الرحيق منساباً على أغصان نبتاتهن الغضة، صارت البنات ينتظرن الليل ليلتقين بزائر الصحراء، وصار الرجال يحلمون بالرحيل إلى أرض الرمال.*

انقلبت راحيل طائراً صغيراً، كالرمح مرقت، مسحت كل الظلال من على الحائط، كانت كلما محت ظلاً تضخم جسدها وتحول، حتى استعادت هيأتها، أنثى مصنوعة من تلك الخلاصة التي اختلطت بعظم آدم المصنوع من الحمأ المسنون فخلقت حواء، انتصبت أمام يوسف، وراحت تردد كلماته التي للتو فرغ منها بصوت يليق بحواء الأولى:

- *يصحون على اندلاع النار في تويجات الزهور، على اختمار الرحيق المنساب على أغصان نبتاتهن الغضة. أنت تقول الشعر... هل يمكنك استكمال هذه القصيدة، من هذه النقطة، منذ أن أخذ العسل الشفاف ينساب من بين وريقات الزهرة حين تفتحها . . . أكمل لي، هل تكمل لي؟*

مدفوعًا برغبة حارقة في مواجهة ما لم ينجح في مقاومته عندما كان في كامل وعيه، مستجلبًا البرهان الذي انتظره في المحاولة الأولى ولم يحضر، ضم يوسف ذراعيه على صدره، رفع رأسه إلى أعلى، وردد بصوت أسكنه كل قدرته على الصمود:

- *والرجال، من بقي من الرجال، يوماً وراء يوم، رغم أنهم كانوا ممعنين في محاولاتهم رد زائر الرمل العنيد عن أحلام نسائهم، باءوا بفشل عظيم، أورثهم حقداً دفيناً. اختزنوا حقدهم، إلى أن سكنتهم الصحراء وتلبستهم روح الرمال، ولم يعودوا يذكرون سوى حقدهم الذي يبحثون عن ضحية له كل يوم.*

وكمن لدغته جمرة صرخ فيها:

- *من قال إننا في الأصل رمال؟*

مفزوعة من صراخه، ارتدت (راحيل) حتى اصطدمت بالحائط، ظلت لحظات ملتصقة به كأنما تستمد منه طاقتها، لحظات واستعادت قدرتها، راحت تقترب من يوسف بينما ترقص كالطيف على أطراف أصابعها، تردد هامسة كالفحيح الكلمات التي أرادته أن يستكمل حكايته من عندها، كأنما تخشى أن ينساها:

- *يصحون على اندلاع النار في تويجات الزهور، على اختمار الرحيق منساباً على أغصان نباتهن الغضة.*

غير آبه بها، استطرد يوسف، العاقدُ ذراعيه على صدره كتمثال فرعوني قُدّ من حجر:

- ***وما زالت تلك الريح تعوي، تضرب في أرجاء الكون، حاملةً روح الصحراء جنيناً يسبح في رحمٍ جاف، وما زال هؤلاء الرجال ـ رغم أن الصحراء أكلت جوفهم ـ يحلمون بيوم يثأرون فيه ويستعيدون رجولتهم، تلك التي بُترت على حد الرمل، ويسعون ـ بينما هم في لباس الرمل الناعم ـ إلى استعادة العرش الذي سلبته الصحراء على قلوب نسائهم.***

يجتهد يوسف ليستعيد إيقاع رقصته، تغيب الموسيقى وتغيم الغرفة، يسمع انسحاب ناي الرومي وحشرجة مزمار أبيه، تتراجع لوحات أمل وتتفرق ظلال حائطه، ولا ينجح في استدعاء تميمة الغول، يتذكر الجرعة الأخيرة الباقية من حشيشته باهظة الثمن التي اشتراها بنقود نطفته المزروعة الآن في رحم تلك اللبؤة المراوغة، ينهار على بلاطات الغرفة، يزحف غير عابئ بالشظايا العالقة في جسده، يتشبث بحرف سريره ويمسك بعوده القديم، يقاوم رغبةً جارفة في مداعبة أوتاره واستعادة النغمات المسكونة فيه، يفشل في استخراج النبتة من مخبئها خلف الشمسية المنقوشة بعناية من خشب الأرابيسك، ينفعل فيكسرها ويمد أصابعه إلى قلب العود، يخرج بلفافة الحشيشة الأخيرة وإصبع بترته الأوتار حين تحداها، وصرخة أخيرة من جوف العود الذي تحطمت أضلعه.

يسقط جوار سريره، ينجح في إشعال اللفافة، تتسرب من بين شفتيه ابتسامة وسط دخان كثيف، يريح رأسه ويعود يتابع الظلال التي عادت إلى غرفته.

٢٠ وقد ارتضيت لكم الصمت

ستقولون إنني أهذي، سوف تحتارون بين ما أدونه بلسان حالي وما أصفه كأنني أراه في غرفتي، يمكنكم التشكيك في كل ما سبق، يمكنكم ادعاء أنني غير موجود، يمكنكم أن تعتبروني ضعيفًا فاشلاً، يمكنكم تتبع كذباتي الكثيرة التي بثثتها بين الكلمات، لم أُخف عنكم أنني كذاب، لم أخدعكم، قلت لكم إنني أكتب بتحريض من طبيبي النفسي، لا أعرف كيف يراني، عاقلاً أم مختلاً، أم مجرد ولد ندهته النداهة، هو لم يقل لي، ولم يخبرني بطبيعة مرضي، فقط عندما عرف أنني أحب الكتابة طلبَ مني أن أكتب كل ما أشعر به، لكنه أبدًا لن يحظى مني بذلك، ما أشعر به أخطر من أن أكتبه في كلمات، لقد زيفت الحقائق وقلبت الأفكار ونسبتُ لنفسي ما فعله آخرون، ونسبت للآخرين أفعالاً سيئة قمت بها بنفسي وشعرت بسعادة غامرة وأنا أفعلها، سعادة لا تليق إلا بمغامر، لا تليق إلا بيوسف المغدور كما لم يعرفه أحد.

قلت لكم يمكنكم التشكيك في كل ما كتبت، فقد كنت أدسّ ما يوحَى إلي به وسط هلوسات تشبه ما تكتبون وتسمونه مسرحًا وشعرًا

ورواية، أخفي ما يوحَى إلي عن عدسة الطبيب الفاحصة، وعن عقولكم المغلقة وعيونكم التي لا ترى، وأضيف تجليات أوجهها عمدًا لأبعث إليكم برسائل، وأنتظر أن يخرج منكم من يفهم، وأضحك وأنا أراقب هذا المدعي وهو يقوم بتحليل كلماتي، أشعر بالنشوة وأنا أراقبه يضرب أخماسًا في أسداس، ينقل سيجارته المشتعلة بين أصابعه كالساحر، ويحاول أن يرسم على وجهه نظرة محايدة وهو يوجه تساؤلاته إلي، كانت سعادتي غامرة بتشويشه، صرت أحب لعبة الكذب، تلك التي تسمونها كتابة.

أنا كذاب بارع، ولكن خذوا حذركم، الحقيقة كلها منثورة بين تلك الأكاذيب، وهي حقائق أوحي بها إلي، سوف تعرفونها حين يحين الوقت، ولكن الوقت يحين عندما تمتلكون الإرادة، وإن لم تفعلوا فإنه أيضًا يحين، ولكن سوف يكون مصيركم الجحيم؛ هناك حيث تعذبكم تساؤلاتكم بلا أمل في الوصول إلى إجابات. فالجحيم هو أسئلة بلا أمل في إجابة.

أنا كاذب بارع، فلتشككوا ما شئتم في ما قرأتم، لكنني الآن فقط أقول ما رأيته بأم عيني في غرفتي، ومن بعده ارتضيت لكم الصمت، فلا حديث بعده ولا كتابة إلى أن يحين الحين.

منذ دقائق، استنشقت آخر جرعة من حشيشتها الفاخرة، وحشيشتها كي لا يزايد أحدكم علي، مجرد صلة بين عالمي حيث أستلهم الحقائق وعالمكم الذي تهيمون فيه كالبهائم، أرى وأعود إليكم بالكشف، أمرره بين الكثير من الكلمات، فأنتم تحبون الكلام الكثير.

ولأنها كانت آخر جرعة في حوزتي، فلم يعد أمامي سوى أن أكاشفكم بالحقيقة، فاسمعوا. سوف أنقل لكم وبكل وعي ما أراه يدور الآن بغرفتي، ولكي تتيقنوا من درجة انتباهي فإنني أعطيكم الأمارة: لي إصبع مبتور ينزف دما ولا يؤلمني.

يدخل من جانب الغرفة ثلاثة شخوص عديمو الملامح، أراقبهم من دون أن أتخلى عن ابتسامتي، يرتدون زيًا متشابهًا فيما عدا الألوان، أحدهم لونه أخضر، والآخر أحمر والثالث أزرق. أضحك، ليس من بين الألوان اللون الأصفر، يغطي الزى وجوههم ولا يَبين من أجسادهم شيء فيبدون كالأشباح.

يتحركون تجاهي، لكنني أتمسك بابتسامتي وأجذبُ بحرص الأنفاسَ الأخيرة من لفافتي، وأستدعي لحني المفضل، رقصةَ حصان أبي، مستعداً لمعاودة الرقص، يتسرب من جدران الغرفة صوتُ حداء حزين، ينبعث من عمق الجدار، يبدأ خفيفًا ويتصاعد ثم يخفت، يساعدني في ضبط الإيقاع، أبدأ في الدوران، أرقص خفيفًا كفهد.

يقف اثنان من الرجال بعيداً عني بخطوات ثلاث، يشغلني غياب الثالث، أدور بعيني باحثًا عنه فتتجلى لي (راحيل) بكامل بهائها، أهم لأقترب منها، فينبثق الرجل الثالث ويدور حولها في هدوء دوائر مكتملة محاولاً اقتناصها، يقف لحظات عند استكمال كل دائرة.

تراقب (راحيل) الشخص الذي يدور حولها ويحرك ساعديه وجسده في أوضاع مثيرة ومستفزة، منفعلة وعلى وشك الغضب تخاطبني:

- ***يوسف، أعلن الآن رغبة روحك في الاستقرار، أعلنها فأفتح لك بوابتي، ادخَل برمحك وغص في طينتي السوداء، ضفرها برمالك . . . امزج روحيهما معا . . . الآن . . . أو لا .***

يتصاعد صوت حداء الإبل ويخالطه إيقاع طبول صحراوي، يضيق الرجل الخناق على راحيل ويدعوها إلى شيء ما، إلا أنها تظل ثابتة لا تتحرك، عيناها حذرتان وروحها معي .

أرقص على إيقاع الحداء، أخاطبها مدفوعًا بنشوتي محافظًا على حذري من الأشباح الثلاثة :

- ***كانت أضواء المدينة تتلألأ من بعيد، بينما نحن غارقون في الظلمة والرمال، يقولون إن الرمال تطلق الأرواح الحبيسة في ذراتها مع مغادرة الضوء الأخير، كنا في منتصف الليل، وكانت أقدامنا تغوص في ليونة لا يملكها إلا الحرير، قلنا إن الصحراء في ليلتنا هذه أطلقت روحَ الحرير من أسرها لتستبقينا، لكنا مضينا، عيوننا معلقة على شبح المدينة الماثل في البعيد .***

ما زالت (راحيل) داخل دوائر الشخص، تحذر أن يلمسها، عيناها معه وروحها معي، تخاطبني :

- ***يوسف، إنهم يضيقون الحصار علي . . . من أجلك أنت .***

يضيق الشخص الخناق عليها، ويبدو كمن يحاول ملامستها ولا يستطيع، أسمعها تصرخ :

- *يوسف، الطين بلا رمل يضربه العفن ويتحلل، الرمل بلا طين ذرات تسفحها الريح وتعوي في كل مكان فتخلق مسوخًا.*

ينفعل الشخص ويضيق الخناق، تصرخ في:

- *يوسف، دع طيني يلجم جواد رملك الحرون ويقوده نحو النور.*

تتزايد حدة الانفعال في حركات الشخص، أسمع جملتها الأخيرة، تتردد في فراغ الغرفة:

- *نحو النور، نحو النور.*

أوسّع دائرة رقصي مقتربًا منها خطوة، يتهاوى الرجل الثالث وتنكسر دائرته، يحل محله أحد الاثنين الباقيين يدفعه بعيدًا فيرتطم بحائط الظلال ويتلاشى فيه.

أدقق النظر في الحائط، تختلط علي الأمور، وعندما عدت بنظري وجدت الرجل الآخر وقد راح يضيق دوائره حول المرأة، لم أعد أعرف إن كانت (راحيل) أم أنها أمي أم أنها أمل، تستنجد بي:

- *كيف لم تعرفني، الريح تصول الآن، تدمدم حاملة جنينها في رحم من جفاف، اضرب بشراعك في قلب الطين وامتص مياهي، حركها، بلل هذا الرحم الحار.*

يضيق الرجل الخناق، يهبش الهواء بقرب المرأة وهي تميل بعيدًا عنه، كان بدينًا كمنصور، رأيته يدور ويضيق الحصار حولها، وهي تبحث من خلال دورانه بعينيها عني تخاطبني مهتاجة وفائرة:

- *الآن، إني أتهيأ منذ زمن لك، أدخل غصنك هذا اليابس في طيني، واضغط، اضغط، زحزح وجع الطين، وحرر طيري، هيا، الآن . . . أو لا .*

أتشجع وأتقدم خطوة وأوسع دائرة رقصتي فيتهاوى الرجل وقد كان على وشك الإمساك بالمرأة، إلا أن الشخص الأخير يحل محله ويدفعه فيتلاشى بدوره في حائط الظلال، يظل الرجل يحوم في دوائر لصيقة بالمرأة، وكأنه يراقصها، بينما هي تتطلع نحوي وتخاطبني:

- *منذ زمان وأنا أربي طيري لك، أرسم صورة عينيك على قوادمه، وأخبئ دفء رمالك في خوافيه، طيري شهيٌّ وعفيٌّ كنسر في عليائه، رقيق بسيط كحمامة تضطجع لطائرها .*

تزداد مناوشات الرجل حدة، وتقترب دوائره من جسد المرأة التي تتملص من كل محاولاته لمسها، تصرخ فيَّ:

- *يوسف، ألقم طيري حبات من كفك، أسكته فهو يصيح، يصرخ، يستنجد بك، داعبه وقَربه إليك . . . آآآآآه ه ه، مولاي، انفخ ريح القيظ الآن وحرر ماء الجسد، الآن . . . أو لا .*

أتشجع، أنجح في توسيع دائرة الرقصة وأشعر للمرة الأولى بأن الإيقاع صار مضبوطًا، أخطو نحو المرأة وأكاد أحتضنها، تلهث المرأة من هول قربي، أشمُّ ريحَ أمل .

يتهاوى الشبح الثالث بين قدمينا. يعلو صوت حداء صحراوي رفيع، وترتفع دقات طبول إفريقية، ونسمع صوت قيثارة فرعونية قديمة، يصاحبها عود شرقي رخيم، ترقص فرس أبي على صوت مزماره، ورغم هذا الخليط ننجح معًا في ضبط الإيقاع وتستمر رقصتنا إلى الأبد. تمرق في عيني صورة القطة مسترخية في بحيرتها الطينية بينما يتصاعد صوت خرير المياه.

وكان هذا آخر عهدي بكم، والعاقبة صمت مقيم.

أ من كراسة يوسف الزرقاء

عرنوس يُصلب من جديد

[1] ثلاث قامات مشدودة ظهرت في الفجر واختفت قبيل الضحى

لحظة، لم يتحرك خلالها أحد، كانوا ثلاثة، صعد اثنان إلى حيث تعلقت جثته أعلى النخلة، أراحه أحدهم على ظهره، وساعده الآخر الذي طوق وسطيهما بحبل من الكتان، هبطا به إلى حيث ينتظر ثالثهم: أطولهم وأشدهم سمرة، مال عليه بعد أن مدداه على الرمال، أسبل جفنيه بأطراف أصابعه، نفخ ريشًا وزغبًا كثيرًا تعلّق بشعره الكثيف الخشن، ضموا ساقيه وأراحوا ذراعيه على صدره العاري فصار كأنما يحتضن الهواء ويقبله، مغمضًا عينيه اللتين غرقتا وسط هالتين وسيعتين من السواد العظيم، تجولوا قليلاً في الأرض المحيطة، تخيروا مكانًا بالقرب، حفروا فيه، حملوه إليه برفق وأهالوا التراب. كبّر أطولهم، فكبروا وتمتموا . . . ثم مضوا.

لا أحد يعرف من أين جاءوا، أو كيف، إنما فوجئوا بوجودهم خارج القرية في الفجر، وسرعان ما كانوا أسفل نخلة، تحركوا صوبها

بدقة محسوبة، لم يوجهوا حديثًا إلى أحد، ولم يستفسروا عن طريق، فقط كانوا يسيرون، ثلاث قامات مشدودة، ظهرت في الفجر واختفت قبيل الضحى.

لم يكن صاحب النخلات قد علم بما يحدث بعد، وحين سمع الناسَ يتحدثون، سكب الماء على الجمرات المتقدة أمامه، دس قدميه في حذائه القديم، وأسرع إلى هناك، أسفل ذكر النخل المنتصب منتصف أرضه تمامًا، وجد الناس متحلقين حول قبة رملية نتأت تحت الذكر، لم يكن لها وجود من قبل، دقق النظر، رآها منقوشةً وكأن آلافًا من الطير أقامت حفل تزاوجها الموسمي عليها مخلفة رياشًا خضرًا متناثرة وزغبًا كثيرًا. راح يسأل الواقفين عساه يظفر منهم بشرح، ولكن ألسنتهم كانت معقودة وأفواههم فاغرة، ولم يستطع أحد من ذوي العيون المحدقة أن يساعده.

انحنى صاحب الأرض على القبة الرملية ينبشها بكفيه العاريتين، ثائرًا وقلقًا، طفرت حبيبات العرق كثيفة على جبهته، وسرعان ما غطت جسده كاملاً، راحت تتقطر حوله فتلتهمها الرمال الساخنة في شبق يئز، كست الرمالُ وجهه ورقبته وتوغلت في ثنايا جلبابه الواسع، وهو يهتاج وينبش.

تباعد الواقفون لما تدافعت حبيبات الرمال الناعمة تسفع وجوههم وثيابهم، وما زال الساعدان المشمران عن عروق نافرة يغوصان في القبة التي راحت تتقلص شيئًا فشيئًا، امتلأ فمه وأنفه وجفناه بذرات الرمال الناعمة، ولما أوشك على الفراغ، دعك جفنيه المحمرين براحتي كفيه فدمعت عيناه

وتغبشت رؤيته، اتسعت حدقتاه في عناد ظاهر للنار التي تسري بداخلهما، دقق النظر، حدّق، تأكد أن ما يراه ليس أكثر من كومة ضخمة من رياش الطير والزغب، لم تلبث أن أطاحت بها ريح قوية قامت من دون أوان يعرفه الواقفون، تخللت الفُرج بينهم وكأنما نبتت من الأرض، رفعت الكتلة الخضراء وحلقت بها مرتفعة، فرقتها عاليًا، عاليًا، كانوا يتابعونها مشدوهين حتى استقرت هادئة فوق هام النخيل.

تراءت الرياش في تحليقها للناظرين عصافير خضرًا تحرك الريحَ بأجنحة هادئة، تخفق كما يخفق قلب الوليد، رآها صاحب النخلات عيونًا تحدق وتذرف دمعات لؤلؤية ذات بريق يثير الاشتهاء، هطلت عموديًا وكأن الريح لم ترها لتستقر على هام نخلاته في قرار مكين، الأطفال أقسموا أن ضحكات عذبةً كانت تصدر عن تلك الأجساد المرفرفة في بهاء، وأن أصحابها لوحوا لهم بأكف رقيقة قبل أن يرتفع بهم بساطٌ من حرير أخضر له أهداب ترفرف في جلال.

[2] لا يفنى في الله من لم يعرف قوة الرقص. مولانا جلال الدين الرومي

عروق رقبته منتفضة بارزة، تأبى الركون إلى أماكنها، سترته المبللة بالعرق المالح تُبرز تفاصيل جسده الأسمر النحيف. في بطء وحذر شديدين يرفع الثقل الذي حاول أن يوازنه بينه وبين الرجل الصاعد إلى جواره، الذي راح يتمتم بكلمات وكأنها قراءة في سفر قديم تآكلت بعض حروفه.

لم يكن الصعود سهلاً، لكنه كان مهيبًا أسطوريًا، كان يشعر أن قدميه ليستا قدميه، إنما هما لكائن خرافي سمع عنه قديمًا في حكايات أمه وجدّه الذي لا يتذكر ملامحه، لكنه يستطيع حتى الآن أن يستحضر صوته الضعيف الواهن، وسعلته الخشنة، والخيالات التي كانت ترافق ليله إثر كل حكاية يسمعها منه: الوحوش الكاسرة، الساحرات الطيبات والحصان الذي يطير، الطيور المنقذة، كرامات الأولياء، يستطيع أن يتذكر كل هذا وأكثر دون عناء، يكفي أن يتذكر جده لتنهال عليه التذكارات صورًا وأصواتًا وخيالات.

" ألم أقل لك يا عرنوس، أن الله خلقك في هذه الدنيا لكي تصدق كلام الآخرين، لم تكن كلمة قالها فوّاز وأنت تصعد الخط إلى جواره، لم تكن كلمة تلك يا عرنوس، ألم تعمل حسابًا للموقف، للظروف، ألم تفكر أن حرارة الشمس وصهد الرمال والعرق الغزير قد تدفع بالرجل إلى التخاريف، ألم تدرك ذلك؟! "

البيادة السمراء الغليظة تساعده على التنقل والتواثب في خفة ومهارة، كفاه الخشنتان تحملان عن هذا، وتلتقطان الأحمال من ذاك، يصعد الخط، يثبت السلم المصنوع من الأحبال والأخشاب، يقفز سريعًا لمكان يحتاج إليه.

يحب الاستماع، يقترب كثيرًا ممن يجيدون الحديث، الحكي - لذته السارقة- يرهف أذنيه لهم ولا يكف عن الحركة، يقفز بعيدًا ويعود سريعًا، ينجز أعمالاً كثيرة حين يقص عليه أحدهم قصته.

"هو لم يكن يكلمك، ولكنها صدفة أن تشتركا في حمل مدفع واحد، صدفة يا عرنوس، وأنت تصدق"

الخوذة المعدنية تخفي نصف رأسه الأعلى. وجهه دقيق، وجنتاه بارزتان، وشفتاه مزمومتان. جسده الناحل آلة بشرية متوثبة، متأهبة دائمًا للقفز، في جيب سترته الكالحة، قلم رصاص وعلب سجائر فارغة، هم يكتبون وهو يطوي الأوراق في سرعة ويدسها في جيوبه.

"كنت تشارك الرجال بعزم، تدفع هذا للصعود، وترفع عن هذا حمله، وتحمل الرسائل ممن يريد، وكأنك الوحيد الذي سيبقى، أليس هذا غريبًا يا عرنوس: أن يرحل كل من أعطاك رسالة وتبقى؟! "

على الضفة الأخرى، جعل يدور ويرقص، عيناه لا تستقران، قدماه لا تلامسان الأرض إلا لترتفعا من جديد، دارت الأشياء من حوله، قوة الرقص دفعت به إلى المزيد، كان يرقص كالفهد، وأحيانًا كالغزال، ثم حلق بعيدًا وحط في كل المدائن والقرى.

"تجول البلاد كلها يا عرنوس، تدق أبواب الأقوام، وترتمي في أحضان كل الأمهات لأنك تذكرهن بالغالي، وترمقك البنات بإعجاب لأن بطلهن وثق فيك وحمَّلك الرسالة، ولولا إصرارك الدائم على الرحيل السريع، لبقيت شهوراً لدى كل أسرة ثكلى، تمسح حزنهم عنهم، وتحكي أمجاد الغالين لهم. "

ما زال مدفوعًا بقوة الرقص، يحط في كل المدائن والقرى، سترته الكالحة أرهقها العرق والملح، تنازل عن بيادته الغليظة لما أضناها السير

والتجوال، فواز يلح على ذاكرته، رمال الخط، وعيون الرفاق، صوت جده الواهن في أيامه الأخيرة، تراتيله المسائية وأوراده اليومية، دائرة الرجال من حوله، ومسبحته الكبيرة التي أرهقه حملها من باب بيتهم إلى غرفة الاعتكاف الصغيرة المظلمة حيث حيره أن جده لم يبادله الضحك والحديث بداخلها، وأحزنه أنه رحل قبل أن يعاتبه على ذلك، رحل الرجل وبقيت أوراقه الصفراء التي طالما قلبها بين يديه ليعرف سر الطيور الصغيرة التي رافقته إلى قبره، ولم يذكر سيرتها لأحد خشية العقاب.

"صور كثيرة بجيوبك يا عرنوس، خرز أزرق، سلاسل فضية، "ماشاالله" وشهادتان، أشياء كثيرة حملت نفسك أمانة ردها، عناوين أكثر."

يغذ السير، لا يحتفظ في ذاكرته بملامح المدائن والقرى، كلها أرض، يكفيه أن تصل الرسالة، ثم يواصل الرقص، رقصة إيقاعية خاصة، لا يعلم كيف بدأت ولا متى تنتهي، لكنه سعيد بها، أشار إليه مولانا جلال الدين الرومي من بين أوراق الجد وخاطبه: "لا يفنى في الله من لم يعرف قوة الرقص"، وها هو يرقص، يشعر بالزهو، تحسس جيوبه المنتفخة وواصل الرقص.

"قد كان يكفيك هذا، ولكنك صدقت فواز، صدقته يا عرنوس، وهل يعقل أن أرواح الشهداء تصير طيوراً خضراً تحلق حتى تسقط على قمم النخيل تاركة رسائل تنتظر من يجمعها، لتبرد دماء القتلى وترتاح

قلوب الثكالى، هل يعقل يا عرنوس، وإذا كان، فلماذا أنت، لماذا اختارك هذا المصير؟ "

الطيور الخضر تزوره في منامه، ترفرف في صحن صدره، تنقر فوق قلبه وكأنها شفرة، فيصحو من نومه مدفوعًا إلى نخلة بعينها، قد تكون في أرض لم يرها من قبل، ولا يجد شيئًا فيعود، وتعود الطيور الخضر.

" أوهامٌ يا عرنوس، أوهامٌ تطاردك في كل وقت. "

الطيور الخضر، ومولانا جلال الدين، أوراق الجد، حكايات الرفاق التي استقرت بداخله، اختلط الإيقاع وما زال يرقص، أصبح خبيرًا بمواقع النخيل في بر مصر، صار كل همه أن يعرف أي النخلات يصعد أولاً، وراح يصعد ويهبط، يصعد باحثًا عن شيء هو يقينًا لا يعرفه.

" كيف يا عرنوس؟ فتضحك ملء شدقيك حتى تنهمر دموعك وتخبرني أنك ستعرفه فقط حين تعثر عليه، ثم يجذبك الإيقاع. "

يغدو خفيفًا كنحلة حين يوصل رسالة، لا يستقر، يواصل الرقص منفوشًا زاهيًا وكأن الله غفر له خطيئته، تتزاحم الصور أمام عينيه، عيون الرفاق، ذرات الرمال المشعة ببريق أصفر، دائمًا هناك رمال، خوذ معدنية مقلوبة، أشلاء مبعثرة، دماء، ودائمًا هناك دماء.

"ما حدث منك لم يكن شهوة للدماء، أكدّتَ لي، وأنا أصدقك، لكنه الغل، والصرخة الحبيسة في صدرك دفعا بك إلى قتله، أنت لم تسع إلى شيء سوى اختبار رجولته وجهًا لوجه، وازداد وقوع

الأسرى لديك وازداد إصرارك على اختبار رجولتهم بزندك، تختلف المقاييس عندك يا عرنوس، تختلف. "

دار، صال وجال كثيرًا في ميادين النخيل، بقدميه الحافيتين وصدره العاري شابه النخيل، صار ناحلاً فارع العود، لم يأبه لرأي الناس ولم يستثره قولهم أن فلانًا يعرف جده فلان وعلانًا يعرف جده الآخر، وكلهم – يا ألطاف الله- كانوا من العينة نفسها.

" يضحكك كلامهم يا عرنوس، وتأسى لحالهم، وتصبر عليهم، فأنت أمهر من صعد النخيل، ومن صعد النخيل تعلّم الصبر. "

دميت قدماه صعودًا، وتهرأ لحمه هبوطًا، وما زال يرقص يبحث عن شيء لا يعرفه، شغفٌ ألمَّ بقلبه شغله عن كل فعل، إلا الصعود، كان يصعد يملأه اليقين بالوجود، ويهبط ولم يتغير يقينه، فيكرر المحاولة، مندفعًا، محاطًا بخليط من إيقاعات شتى وأصداء كلمات، ومولانا جلال الدين، الطيور الخضر، دماء القتلى وقلوب الثكالى.

" هكذا كنت دائمًا يا عرنوس، تحب اقتحام القمم، ولكنك لم تحسن الاختيار، رأيتك بعيني مصلوبًا على جذع نخلة بعد أن أعجزك النزول، تتدلى رأسُك على صدرك قلادة كالتي لم ترغبها يومًا أو تتمناها، هل استحالت روحك الآن طائرًا أخضر، يرتفع ويرتفع حتى يسقط إعياءً على هام النخيل، هل؟! "

الشيخ ضباب

يقول العارفون الثقات إن الشيخ ضباب كان رجلاً غير عادي، يخرج مع طلعة الصباح، يغوص بقدميه الحافيتين في طين الشوارع، التي لم تكن قد عرفت الإسفلت بعد. يحمل على كتفه جوالاً، قابضًا على عصا غليظة صنعها من فروع الأشجار.

لم يذكر أحد قط أنه قد رأى الشيخ ضباب في النهار الواحد، في مكان واحد، أكثر من مرة، فقد كان على دراية بالسكك القديمة التي لا يعرفها أحد غيره، يجوب المدينة كلها ولا يترك مكانًا لا يطرقه.

ويزيدون، فيقولون أنه قبل أن يقع ما وقع، كان الشيخ أسمر البشرة نحيفًا، لكنه مع ذلك وللوهلة الأولى، يترك إحساسًا بأنه غير مؤهل للتعامل مع البشر، أو أن البشر غير مؤهلين للتعامل معه، ربما للنظرة المختلفة في عينيه، اللتين لا تنظران ولكنهما تحلقان في أجواء لا يستطيع أحد أن يتخيل ماذا يحدث فيها، وربما لأسباب أخرى...، ولكن الجميع اتفقوا على أن الرجل غير عادي.

وكان أهل المدينة، والكلام على لسان الرواة ـ يعرفون مواعيد دخول الصلوات عندما يرون الشيخ ضباب وقد وضع جواله على الأرض ليرسم مستطيلاً، مستعينًا بعصاه الغليظة، ثم يدخله مقيمًا صلاته، بعد أن حدد القبلة بدقة لا تتفاوت مع اختلاف المكان، وبعد أن يفرغ يحمل جواله ويقبض على عصاه، ليكمل مسيرته في طين الشوارع.

لم يتفق اثنان في تحديد مهنة له، فبعضهم يقول إنه كان رفاعيًا ماهرًا، وأن جواله هذا ممتلئ بأنواع كثيرة من الثعابين، والبعض يؤكد إنه كان يتعامل مع أهل الأرض السفليين ويتصل بهم، ودليلهم على ذلك عدم حاجته إلى ما يحتاجه البشر. آخرون يوهمون أن الشيخ ضباب يحمل في عقله خريطة بالأماكن المرصودة التي خبأ فيها الأجداد كنوزهم، فأحكموا الرقابة عليها بالطلاسم والأعمال، ولكنهم في النهاية محتارون في أمره غير قادرين على فك أسراره.

ولما وقع للشيخ ضباب ما وقع، واختفى عن أعين الناس، تكاثرت الأقاويل حول سر اختفائه، فبعض الصبية قد رأوه – على حد قولهم ـ وهو يخلع جلبابه خلف النخيل على الشاطئ ثم يقف عاريًا متطلعًا إلى النيل، ولما اقتربوا منه نظر إليهم وكشر عن أنيابه التي يؤكدون أنها راحت تقطر دمًا غزيرًا، فارتعدت مفاصلهم وولوا هاربين لا ينظرون خلفهم، حتى آوى كل منهم إلى داره.

ويأتي دور الكبار، فيوبخون صغارهم مؤكدين أن الرجل لم يكن إنسيًا أصلاً، إنما جني جاء إلى المدينة في مهمة يؤديها ولما فرغت مهمته عاد

إلى أهله غير مأسوف عليه . . . ، وقانا الله شره ، آمين ، يرددها الجالسون ثم ينصرف كل منهم إلى حاله .

يقول الرواة : واستمر الأمر على ذلك حتى كاد الناس أن ينسوه .

ولما عاد الشيخ ضباب إلى سيرته الأولى، وظهر بين الناس من جديد، كان أبيض الوجه ممتدًا كأنه جذع من جذوع النخيل التي تكثر على شاطئ النيل في المدينة، يتحرك بخفة أكبر، وكان قد تخلص من جواله، وما زال قابضًا على عصاه الغليظة، يغوص بقدميه الحافيتين شاهقتي البياض في طين الشوارع فلا يظهر بهما أثر لوسخ كأنه يطير فوق الطين بشبر حتى لا يلامسه . ولكنه كان هذه المرة يعرج على الحوانيت، يبتاع ما يحتاجه الناس ، ويجالس السامرين بالمقهى ، محتفظًا بوقار وهدوء غريبين وبنظرته المحلقة ذاتها .

ثم إنه من حين إلى آخر كان يخرج من جيب جلبابه نقودًا ذات فئات مختلفة، ليدفع مقابل ما يطلب أو ما يطلب له الآخرون ممن يجالسونه، حتى ظن الناس أن الشيخ الداهية قد عثر على ضالته المنشودة، كنز من كنوز الأجداد نجح في فك طلاسمه والتخلص من حراسه ، ثم عاد ليعيش عيشة رغدة منعمة .

يقول الرواة : واستمر الحال كذلك حتى اعتاده الناس بينهم ، ولم يعد أمره غريبًا عليهم ، يظهر فجأة فيجالسهم ويسامرهم ثم يختفي وما زالت أصداء كلماته في آذانهم فلا يعثرون له على أثر .

" الأرض تدور، وهي بحاجة إلي . . . " يقولها بصوت كأنما يتردد في أصداء قاعة مغلقة قبل أن يرتد خارجًا من فمه، حين يسأله أحد الجالسين عن سر اختفائه المفاجئ، ثم يضرب الأرض بعصاه كأنما يأمرها بشكل ما أن تكف عن الدوران، يُخرج قطعة ذهبية، يضعها في كف صاحب المقهى، "أراكم في أرض غير الأرض . . . " يقولها ثم ينصرف.

ولما دخلت الحملة البلاد، انتشر بين الناس الفزع والرعب، ولأن المدينة تقع على النيل مباشرة، وتشتهر بين البلاد بالرخاء والخير الكثير، أيقن الناس أنهم لا محالة هالكون، وأن النيل الذي كان سبب رخائهم، سيكون دليل الفرنساوية إليهم.

فأما القادرون من أهل المدينة، فقد جمعوا أموالهم ونساءهم وأولادهم، ورحلوا إلى بلاد أخرى لا تكون مطمعًا للعدو، وأما الباقون فقد سلموا أمرهم للذي خلقهم ورضوا بقضائه وجلسوا في انتظار حكمه.

ويذكر العارفون الثقات أن الباقين من أهل المدينة لما رأوا الشيخ ضباب وقد اختار قطعة أرض على النيل مباشرة لنصب خيمة كبيرة لا يبرحها أيامًا، لم يشغلهم أمره، فقد كانوا في انتظار الحادث الجلل والبلاء المحيط.

ولكنهم لما رأوا ما لم تصدقه أعينهم، ذهلوا، وتداخل عليهم الأمر، دخان كثيف يخرج من أرجاء خيمته ينتشر في سرعة مذهلة ليصنع غلالة كثيفة تخفي أصابع كف المرء عن عينيه.

ولما بدت سفائن العدو مشرعة، وأيقن الناس أنها النهاية، كان الضباب قد تحلق جو المدينة واختفى النيل من أمام أعينهم، وتخبط الناس في بعضهم، وظل الضباب يزيد رويدًا رويدًا، كثيفًا كثيفًا. . .

يقول الراوي: ولما انقشع الضباب، كانت سفائن العدو قد اختفت وعاد للمياه صفاؤها، فأما القادرون من أهل المدينة فقد جمعوا أموالهم ونساءهم وأولادهم وعادوا إلى ديارهم من جديد، وقبل ذلك كان الباقون قد هرولوا إلى الخيمة فوجدوها خالية إلا من عصا الشيخ الغليظة وبعض الطعام.

الصفقة

١

لم أدرك لماذا كانت دموعها تختلف كثيرًا هذه المرة، سألتها لماذا تصرين على الانسحاب؟ أجابت من بين دموعها: هو أراد ذلك.

ولما أردت التجول بين حدائق عينيها، كانت ينابيعها جفت، وطيورها هاجرت.

قامت من مقعدها، وانصرفت، لكن أريج هواها ما زال يحيط بمقعدي.

استدراك أول:

كانت كلما قبّلتها، تتمايل فأتمايل معها، تنشقّ فأرتد إليها، ونرتق جراحنا بجراح لن تلتئم الآن.

٢

اتفقنا على المبادلة، لوّح بحقيبته الضخمة محركًا رأسه في هستيرية واضحة، كاشفًا عن أسنان صفراء. أخرج ورقة وقلمًا وخط الموعد

والمكان، وأعطاها لي. أغلق حقيبته وشد على يدي، لم يبتسم، وانصرف.

استدراك:

في كل مرّة ألقاها كنت أرى فيها شيئًا من ملامحه، لكنني كنت أتفادى النظر إليها، وأكتفي بأن صورتي في عينيها.

٣

في الموعد، جاء حاملاً حقيبته، وقف أمامي، بدأته بالتحية، أصر على أن أفي بوعدي، أشار بإصبعه مهددا. لم أكن في حاجة إلى تهديد، التقطت الحقيبة من يده، أخرجت من بين ضلوعي شيئًا وجدته معي منذ عرفتها، منحته إياه.

أخذ يقلب فيه بدهشة، ابتسم هذه المرة، صافحني ثم استدار منصرفًا، سألته: لماذا أنا؟

أجابني وهو على وشك الاختفاء: هي لا تريد سواه.

استدراك أخير:

كل محاولاتي لإدخال الحقيبة بين ضلوعي كانت تبوء بالفشل، تمددت على الفراش وانتظرت، ربما تجيء.

في انتظار القطار

القطار يمر على القرية الصغيرة، الناس يخرجون من بيوتهم، يصطفون على قارعة الطريق، يرون الدخان كثيفًا، كثيفًا.

يشقون جلابيبهم، يفرشونها على الأرض، يتسامرون ويتقاسمون الذكريات، يرتب بعضهم أحداث ما بعد الوصول ويعلن إنه . . .

يتكاثف الدخان كثيرًا كثيرًا، يتلمسون طريقهم عبر الظلام، لبيوتهم عائدين.

محاولة:

كان يردد دائمًا أن القطار إذا ما وصل إلى محطته الأخيرة فإن الناس من فرط لهفتهم يتدافعون عبر أبوابه ونوافذه، لكنني حين جلست جوار النافذة، منتظرًا قدوم المحطة الأخيرة، أصبت ببعض الدهشة وقليل من الألم، وكثير من الرغبة في القفز خارجها.

بغير أوان

كانت تقول لي إذا جاء الصبح لا تفتح نافذتك للريح، لا تطلق كل عصافيرك كي تمرح.

ساعتها كنت أود كثيرًا لو يصبح لي عمران، عمر كي أطلق كل عصافيري، والآخر كي أستقبل وجه الصبح وألعن وجه الريح القادمة بغير أوان.

حلم

لقطة ١

وكان آخر ما تذوقته في هذه الحياة قبلة من الفم الفرعوني. بعد أن صارعت كل الذين حاولوا أن يتخطوني في الميدان، فصرعتهم. وجدتها بقدها الممشوق وشعرها الكستنائي الرائع، صبوحة الوجه، بثوبها الفرعوني الطويل، ملقاة على الأرض في إعياء، اقتربت منها، انحنيت لأراها، فتهت في عينيها، وما كان منها إلا أن أمسكت برأسي وغبنا معًا في قبلة كانت أشهى ما تذوقته في هذه الحياة.

لقطة ٢

لقد تعدت الحافلة كل السرعات الممكنة، وأنا ممسك بمؤخرتها، أطير في الهواء، أحاول جاهدًا أن أحتل مكانًا بداخلها، أشعر بالتعاسة كلما زادات الحافلة من سرعتها وأنا أرى الناس بداخلها، كل ثابت في مكانه سعيد به.

أشعر بالهواء يلفح وجهي، أغمض عيني، أراني داخل الحافلة وقد امتطيت جوادًا أبيض لا ملامح له، أروح به داخل الحافلة جيئة وذهابًا، والناس من حولي يحاولون عرقلتي، لكنني مستمر في حركتي الهادئة، لاحظت فوات محطتي، والحافلة مستمرة في طريقها إلى ما لا أعرف، حاولت الخروج، لم يطعني الجواد، غلقت الأبواب، وتعلق الناس في أطرافي فأثقلوني. أختفي. . . وتستمر الحافلة.

لقطة ٣

هو يحب الناس ويعتقد أن الناس يحبونه، يتكلم معهم، يعاشرهم، يعيش مشاكلهم. يحمل على ساعديه بقرة صغيرة، يسير بها في شوارع القرية ويطوف حواريها. يضعها على الأرض، يمسك سكينًا – لا يعرف من أين أتت ـ يعقرها، يتجمع الناس من حوله، ينسحب في هدوء ويرحل، بينما الناس يأكلون من لحمه في نهم.

العودة إلى البيت

انهال الضرب شديدًا على رأسي، أظن أن إحدى عيني قد انفجرت بصوت مسموع، أشد ما ضايقني تلك اللزوجة التي أشعر بها في ياقة قميصي وبين فخذي، لم أكن أعرف أن جسمي يحوي كل هذه الكمية من الدماء.

والذي كان يضربني بعنف، رأيته بعيني السليمة، كان يطرد الواقفين حولي للفرجة، ويصرخ فيهم أن كل واحد حر في ما يملك، استفزتني الكلمة الأخيرة وانتظرت أن أبكي، والذي يضربني لم يتح لي الفرصة، أظن أن الدموع يمكن أن تخلصني من بعض هذه اللزوجة القذرة التي أشعر بها تحاصرني وتضيق الخناق من حولي.

الآن انفجرت عيني الأخرى، أعتقد هذا فصوت الانفجار هذه المرة كان صارخًا هكذا بم، حتى أن الناس تجمهروا من حولي، كنت أسمع همهماتهم، كانوا يتابعون التصاعد الدرامي للموقف، أولاد الكلب أصحاب السيارات كانت تصلني قهقهاتهم العالية.

حذائي الذي أرتديه منذ زمن طويل اشتدت درجة الحرارة بداخله، لذا فقد كنت أنتظر لحظة الغليان، ساعتها تتبخر كل المياه اللزجة، وتجف ملابسي فأستطيع العودة إلى المنزل من دون أن يلحظ أحد ما حدث لي ككل يوم. غير أن الذي يضربني اليوم، غير اتجاه الضرب فجأة، أعتقد أنه لم يبق في رأسي شيء يستحق الضرب فقد أخذ يوجه ضرباته إلى قدمي، وأنا أتقافز، ولأنني كنت أتابع في الأيام الخوالي رياضة القفز بالزانة، فقد اعتمدت بكلتا يدي على السور الحديدي الملاصق للطوار، ارتفعت في الهواء . . .

لم أدرك معنى أن للأرض جاذبية سوى في تلك اللحظة، ارتطمت بالسور الغبي، وأصدر ارتطامي صوتًا كهذا طاااااخ، والذي هو يضربني استغل هذه الفرصة فراح يوجه ضرباته إلى مؤخرتي التي آلت إليه بفعل الجاذبية اللعينة.

أظن أن هذا التصاعد الساخن في الأحداث قد لاقى إعجابًا لدى الجماهير، لأنني سمعت تصفيقًا وتهليلاً شديدين، والذي هو يضربني أصدر صوتًا بذيئًا من حنجرته قبل أن يصيح فيهم اخرسوا.

كنت أكثر راحة في هذا الوضع، أتخيل الشكل الذي سوف أكتب فيه قصة اليوم، وأتخيل أن رئيس تحرير تلك الأسبوعية التي تهتم بالأدب قد وافق على نشرها. لذا كنت أستعجل اللحظة التي تتعب فيها يد الذي يضربني فيكف، لكن يبدو أن الذي هو يضربني اليوم لا يعرف التعب فقد اشتدت ضرباته وتوزعت على أنحاء جسمي.

أرحت نفسي من انتظار الدموع ونقطة الغليان ولم يعد يشغلني سوى البحث عن كذبة مناسبة أبرر بها هيئتي حين أعود إلى البيت.

المحتويات

الصفحة

بين لغة الراوي ولغو الشخصية تتشكل عوالم رواية ابن القبطية. وبما أن الراوي هو الشخصية تتأكد أمامنا خصوصية العلاقة بين اللغة واللغو في تقديم رواية أبدع وليد علاء الدين في تقديم واقع إشكالي من خلالها. ابن القبطية من أب مسلم وأم مسيحية، تختاره راحيل اليهودية لتنجب منه بنتا تجمع بين الديانات الثلاث. رواية تضرب في واقع متناقض، يؤدي ثمنه يوسف الراوي - الشخصية، بحثا عن شفاء وجودي، من مرض اسمه الواقع. ابن القبطية رواية عميقة، كتبت بلغة صافية رقراقة وجميلة، ومبنية بطريقة متقنة، وباقتصاد سردي مكثف.

د. سعيد يقطين

سعدت كثيرا بقراءة رواية ابن القبطية للشاعر وليد علاء الدين، الذي فاجأني بمهارته الكبيرة في السرد مثلما كان ماهرا دائما في الشعر. ابن القبطية، رواية كتبتها الكوابيس وأحلام اليقظة، وهلوسات الفصام العقلي، رواية مشبعة بالمعرفة في أرق صورها، وأيضا في صورها المشردة والشوارعية، توجد رغبات حميمة، ورغبات إنسانية عادية، يوجد حديث عن الحب وحديث عن الجنس، والمخدرات، وحتى علم اللاهوت، والحلال والحرام، وأبطال تتشابه حيواتهم وتختلف بحسب الظروف، ولأن الفساد عموما، موضوع عصري لا بد أن يتمدد في كل شبر من حياتنا المعاصرة، فليس غريبا أن تساهم السيقان العارية في إيجاد وظائف لصاحباتها. بالنسبة للجو العام، فهو جو حلمي وكابوسي مخيف أحيانا ويستدر الشفقة أحيانا أخرى. وبالنسبة للغة، فقد كانت لغة شاعر: مميزة، راقية، مقتصدة، وتعرف تماما ما تقول.

أمير تاج السر

وليد علاء الدين، شاعر وكاتب مصري، ولد في ١٩٧٣م. صدر له في الشعر: "تردني لغتي إلي"، و"تُفسر أعضاءها للوقت". وفي المسرح: "العصفور" الحاصلة على جائزة الشارقة للإبداع العربي، و"٧٢ ساعة عفو" الحاصلة على جائزة ساويرس لأفضل نص مسرحي. وله إصدارات في أدب الرحلة والدراسات الثقافية. حاصل على ماجستير الصحافة من كلية الإعلام جامعة القاهرة، ويعمل مديراً لتحرير مجلة تراث الإماراتية.




ISBN 978-977-803-016-7
9 789778 030167 >